رواية



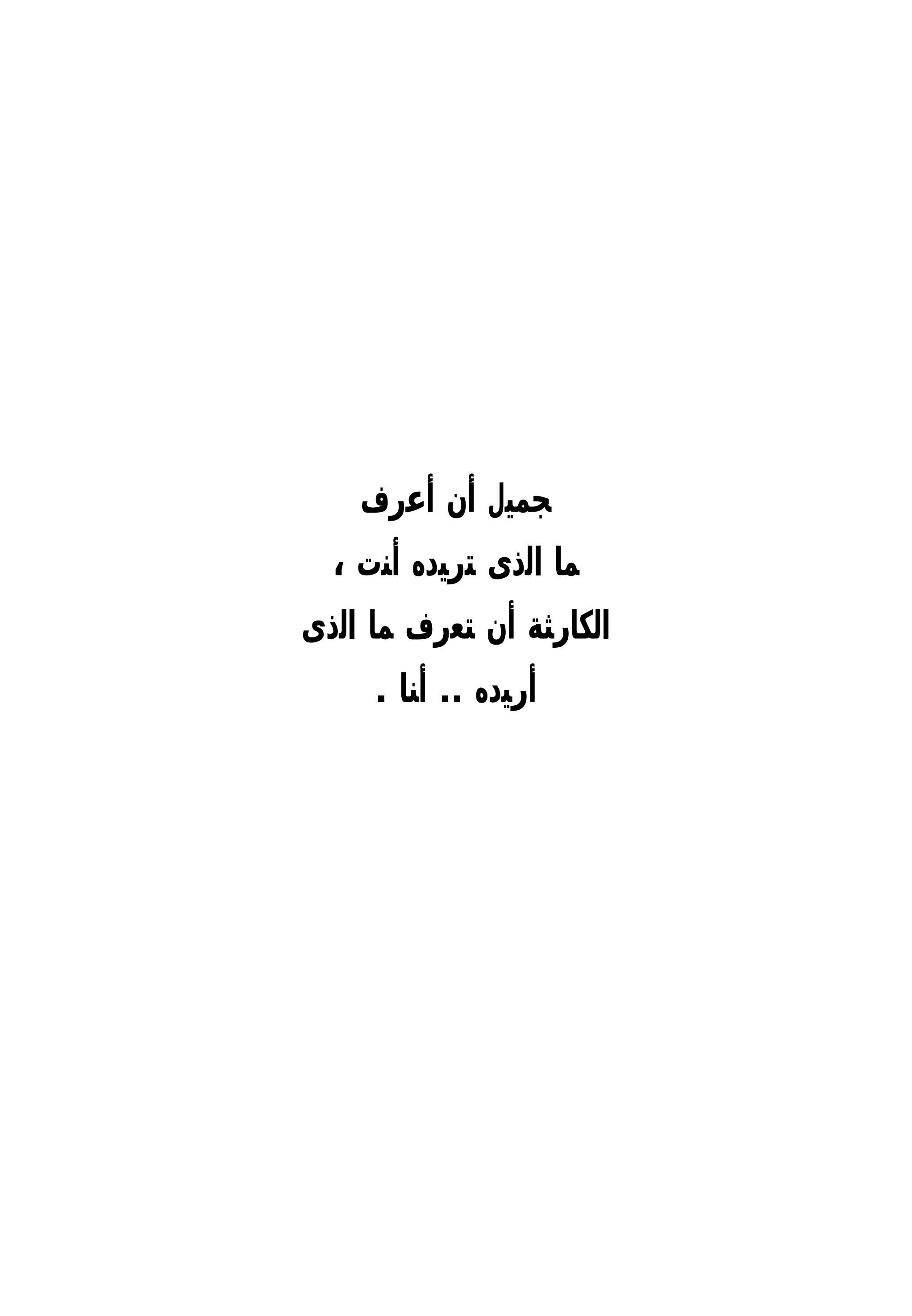
اللهو الخفي

محمد مستجاب

اللهو الخفى

رواية

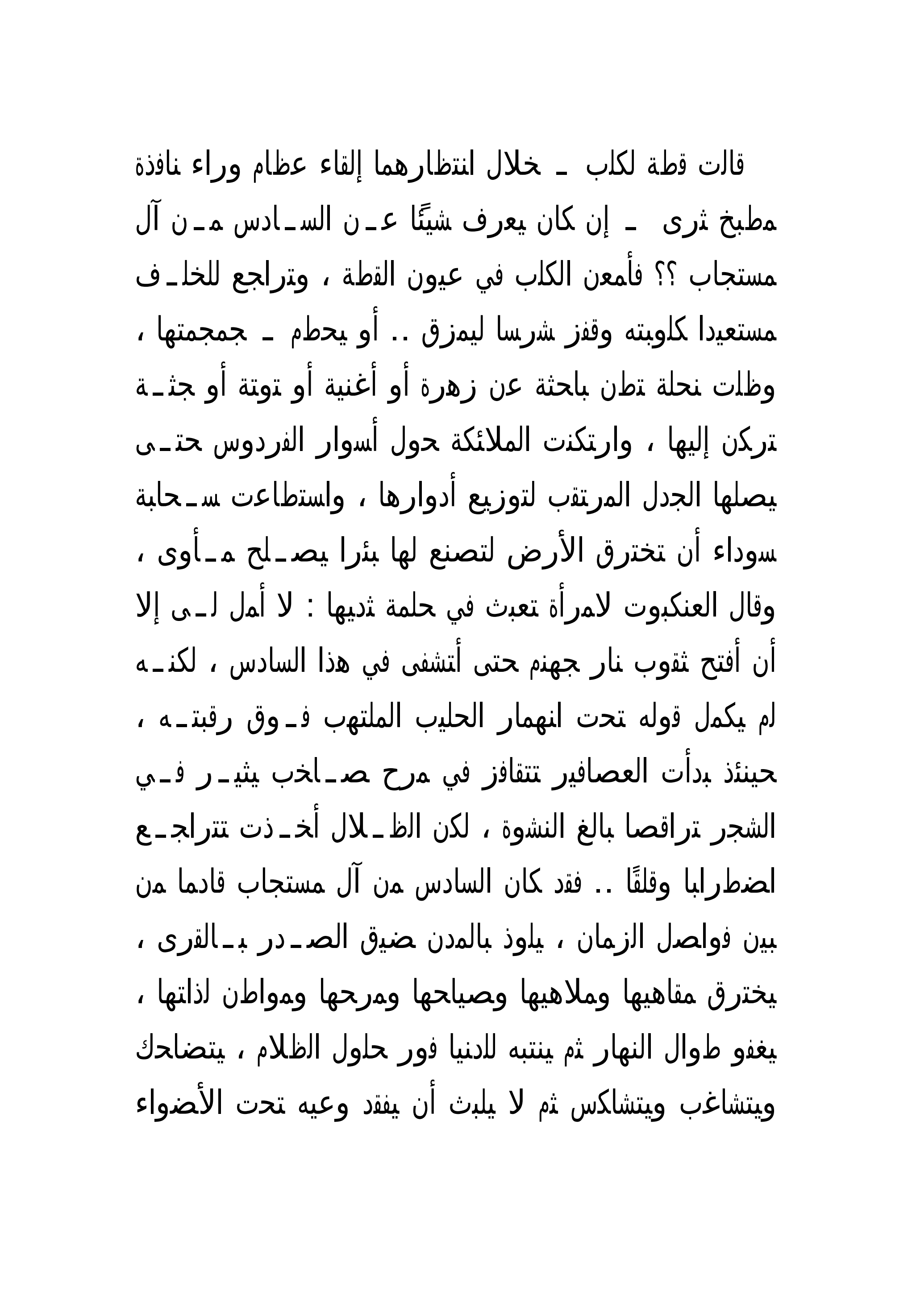
محمد مستجاب


جميل أن أعرف
ما الذى تريده أنت ،
الكارثة أن تعرف ما الذى
أريده .. أنا .

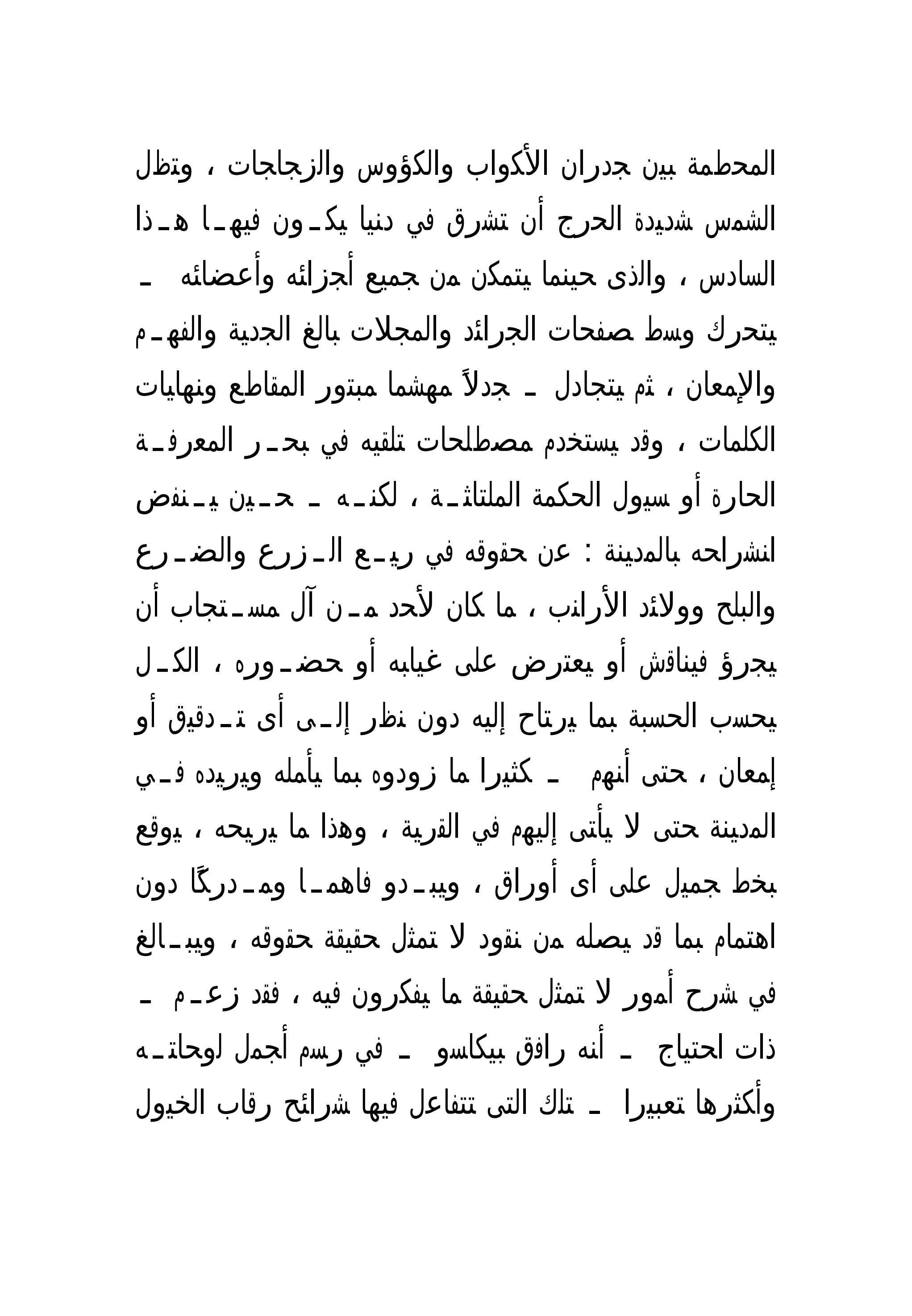
لعلنى أول من انتبه إلى أن الأخاديد تربط بين ملامح الوجه وتضاريس الأرض ، وأن القوانين تلتقى مع الكوانين في جمجمة القادرين ، وأن المحاشم تشير إلى صفة الحياء لفظا وسلوكا وارتباطًا بأعضاء إنسانية في مواضع تثير الخجل أو الفخر ، لكن السرة تظل في قمة انتفاخ البطن منذ انفصاله عن رحم الوالدة ، كما أنى ـ رعاك ا ـ لا أميل على أكل الحمام وقراميط السمك والجبن القديم ومؤخرات الشياه أقصد الغنم ، فإذا كان واحد منّا محظوظًا فعليه أن يقع فيما وقعت فيه ، أى في الهوة الساحرة بين البرق وبين حائط سور الفردوس ، شجاعا ـ أظل ـ أمتطى ظهور الجياد الهادئة البائسة التى تمعن في شجن إلى عربات الكارو والحنطور ، فلا تكن مثل أمى التى أنجبت واحدا مثلى دون أن تدرى أن العالم كله يغض البصر حتى لا يرانى ، وأنى أغض البصر دون أن يدرى أحد أننى لا أملك بصرا ، وأن المياه الزرقاء تندفع بين أهدابى ثم لا تلبث أن تكتسح أخاديد الوجود ، فتنكسر الأشعة وتتفتت ذرات في غبار الكون ، اسكت فإن الكوارث تميل إلى أنغام الموسيقى ، حتى تحس بها دون أن تبوح ، إنها تسعى دائما للإطاحة بالأذكياء تمهيدا لمصادقة

التافهين ، لا تنزعج : فإن الكلاب الضالة تعرف الطريق إلى ما تريد ، ولن تضيق بها السبل أبدا ، إنها لم تقع فيما وقعت ـ أنا وأنت ـ فيه .

لكنى ـ من باب الود ولو كان ضيقًا ـ أستطيع أن أدعـوك إلى كوب من الشاى ، وثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر الذى يفصح عما تحبه منذ كنت رضيعا ، فإذا بلغت فطاماً تخر لك الجبابر ساجدينا ، وإنه أمر ممتع حتى لو انتهى بـك الأمـر إلى أن تنال الشهرة ـ بعد ذلك بدهور ـ بصفتك طرفًا فـي قضية (خُلع) تسعى زوجتك فيها أن تخر لها ساجدا بسـبب قصور محرج في أمور لا نحب الإفصاح عنها بعيـدا عـن مواقع المحاكمة ، وبين الفصح والإفصاح تتوارد الأحداث ، وتتوالى المشاهد ، وتتوارى الحقـائق باحثـة عـن شـقوق العقارب ، وتنق الضفادع بأبيات من الشعر الذى يتيح لنا أن نسعى كى نصل إلى أى طريق يؤدى إلى الفردوس ، عليـك أن تظل طيبا مثلى ، تخلو من الأفكار الشريرة مثـل ملكـة النحل ، وأن تدرك أن ما في جمجمتك ليس صحيحا بشـكل حاسم ونهائى .



قالت قطة لكلب ـ خلال انتظارهما إلقاء عظام وراء نافذة مطبخ ثري ـ إن كان يعرف شيئًا عن السادس من آل مستجاب ؟؟ فأمعن الكلب في عيون القطة ، وتراجع للخلف مستعيدا كلوبته وقفز شرسا ليمزق .. أو يحطم ـ جمجمتها ، وظلت نحلة تطن باحثة عن زهرة أو أغنية أو توتة أو جثة تركن إليها ، وارتكنت الملائكة حول أسوار الفردوس حتى يصلها الجدل المرتقب لتوزيع أدوارها ، واستطاعت سحابة سوداء أن تخترق الأرض لتصنع لها بئرا يصلح مأوى ، وقال العنكبوت لامرأة تعبث في حلمة ثديها : لا أمل لي إلا أن أفتح ثقوب نار جهنم حتى أتشفى في هذا السادس ، لكنه لم يكمل قوله تحت انهمار الحليب الملتهب فوق رقبته ، حينئذ بدأت العصافير تتقافز في مرح صاخب يثير في الشجر تراقصا بالغ النشوة ، لكن الظلال أخذت تتراجع اضطرابا وقلقًا .. فقد كان السادس من آل مستجاب قادما من بين فواصل الزمان ، يلوذ بالمدن ضيق الصدر بالقرى ، يخترق مقاهيها وملاهيها وصياحها ومرحها ومواطن لذاتها ، يغفو طوال النهار ثم ينتبه للدنيا فور حلول الظلام ، يتضاحك ويتشاغب ويتشاكس ثم لا يلبث أن يفقد وعيه تحت الأضواء



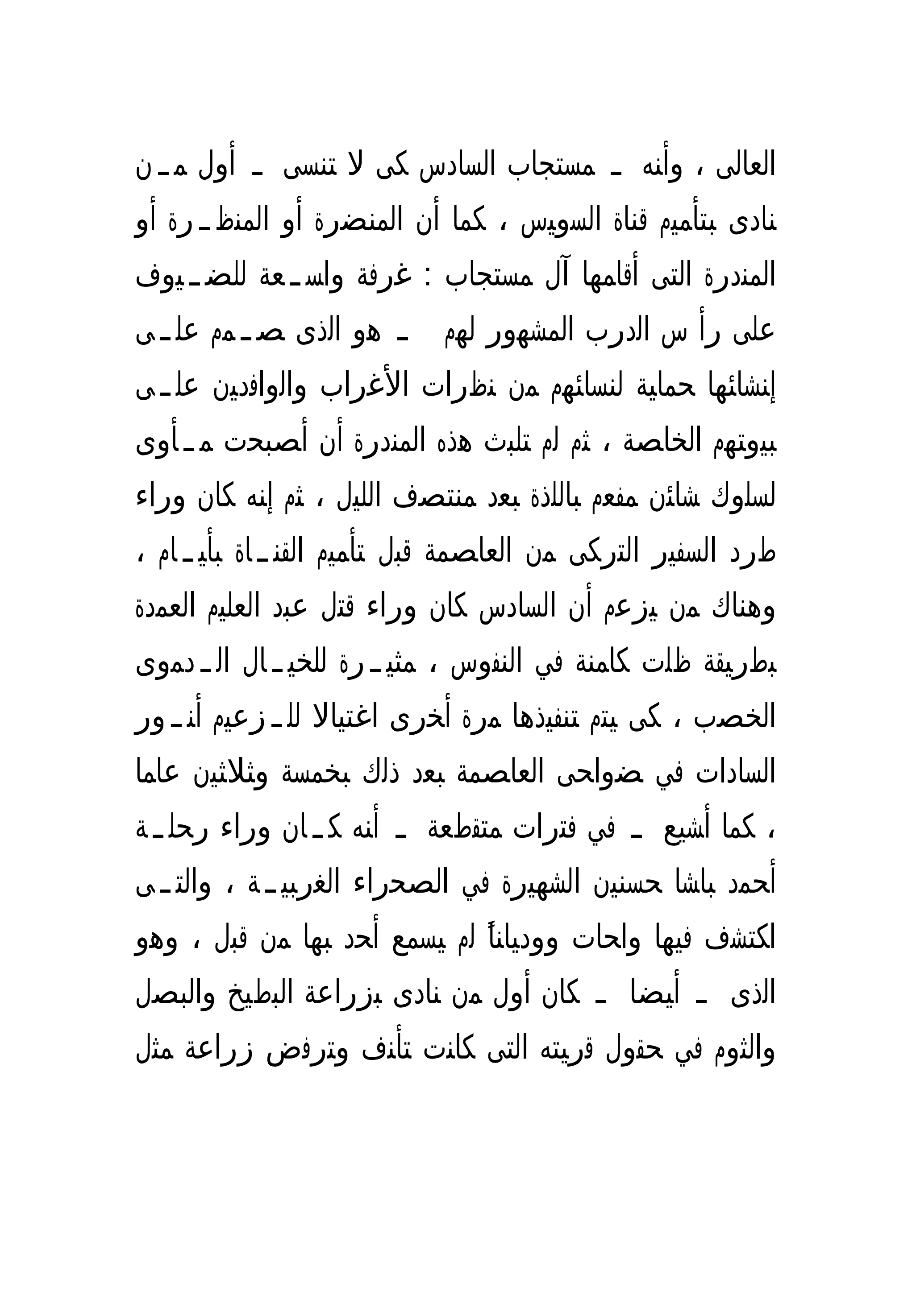
المحطمة بين جدران الأكواب والكؤوس والزجاجات ، وتظل الشمس شديدة الحرج أن تشرق في دنيا يكون فيها هذا السادس ، والذى حينما يتمكن من جميع أجزائه وأعضائه ـ يتحرك وسط صفحات الجرائد والمجلات بالغ الجدية والفهم والإمعان ، ثم يتجادل ـ جدلاً مهشما مبتور المقاطع ونهايات الكلمات ، وقد يستخدم مصطلحات تلقيه في بحر المعرفة الحارة أو سيول الحكمة الملتاثة ، لكنه ـ حين ينفض انشراحه بالمدينة : عن حقوقه في ريع الزرع والضرع والبلح وولائد الأرانب ، ما كان لأحد من آل مستجاب أن يجرؤ فيناقش أو يعترض على غيابه أو حضوره ، الكل يحسب الحسبة بما يرتاح إليه دون نظر إلى أى تدقيق أو إمعان ، حتى أنهم ـ كثيرا ما زودوه بما يأمله ويريده في المدينة حتى لا يأتى إليهم في القرية ، وهذا ما يريحه ، يوقع بخط جميل على أى أوراق ، ويبدو فاهما ومدركًا دون اهتمام بما قد يصله من نقود لا تمثل حقيقة حقوقه ، ويبالغ في شرح أمور لا تمثل حقيقة ما يفكرون فيه ، فقد زعم ـ ذات احتياج ـ أنه رافق بيكاسو ـ في رسم أجمل لوحاته وأكثرها تعبيرا ـ تلك التى تتفاعل فيها شرائح رقاب الخيول

وحدواتها خلال جولاتهما معا في باريس أو مدريد أو كفـر الشيخ أو منفلوط ، وأثبت ـ بما لا يدعو للشك ـ أنه ناصر الشاعر سامى البارودى ضد أحمد شوقى وحـافظ إبـراهيم وإبراهيم ناجى وصلاح عبد الصبور ، كما أنـه كـان وراء إطلاق اسم طائفة الإسماعيلية الشهيرة على مدينة أقيمت فوق قناة السويس رافضا أن يربط اسمها بالمدعو الخديو إسماعيل ، وكل الناس تعرف ـ في قريته ـ أنه صاحب اقترح تعميم التعليم في كل أنحاء الدنيا خضوعا لما اقتنصه منه المـدعو طه حسين ليكون التعليم مشاعا بين الجماهير الكادحة كالماء والهواء والفجل والبصل والأحجبة والتمائم ودفـوف ليـالى الزار ، والسادس هو الذى أماط اللثام عن وقائع دامية مزقت أجساد أطفال انتقاما ، كما أنه رفض ـ في عصور مبكرة ـ أن يخترق بإصبعه موضع العفـة فـي عروسـته ـ التـى أصبحت زوجته وأم أولاده ، دون اهتمـام بكـل الضـغوط الشريفة من أهلها وأهله تمهيدا لإعلان الشـرف المرفـرف بالمنديل الدموعى ليلة زفافهما الشهير ، ثم يقال أنـه كـان وراء إشاعة المعنى العظيم لاستحمام النساء في ترعة القرية ليلة شم النسيم تطهيرا لأجسادهن ، والذى قدم بعض المحبين

للسادس تفسيرا له مرتبطًا بجسد ذى القروح الـذى حملتـه زوجته بحثًا عن علاج في القرى والزرابى والنجوع ، حيث كانت الإجابة مشدودة بعلاقات الاندهاش والتعجـب حـول الأدران التى علقت بجسدها خلال رحلاتهـا المرهقـة فـي الحكايات المتناثرة ، والتى لابد لها – ثم لكل نساء القرية – أن تعالج قروحها بعد شفاء جلد حليلها ، ولعل ذلك ما دفـع بعض المناوئين للسادس – أيام أن كان لا يزال يعشق القرية دون المدينة – ليجيب عن سؤال خبيث آخر حـول الملـك شهريار الذى جرفته لذة الانتقام الشرس من عذارى المنطقة بعد أن ضبط قرينته وقد انهمكت في اللذة على فراش مملكته مع عبيده ، حتى جاءت تلك الغادة الجميلة شهرزاد لتوقـف المهلكة أو لتطفئ نار وحشية الملك بإضفاء ونس الحكايـات وألفة الليالى الألف مع إضافة ليلة صافية هدية منها ، وكـان السؤال الخبيث المفعم بالشر يثير علامـة غامضـة علـى الحكايات كلها : فبعد أن تنجح شهرزاد – بعد منتصف الليل – في استنامة شهريار هادئًا مسالما يغط في الأحلام ، مـاذا كانت تفعل ؟؟ وكانت أصوات السخرية الوضيعة من أنوفهم تعنى أنها – شهرزاد الجميلة – ظلت كل ليلة تترك مليكهـا

نعسان في فراش القصة والأشعار والرواية الوثير ثم تسـعى في هدوء حواء المعروف كى تقضى بقية الليل مـع العبيـد الجدد .. تمارس المتعة الملتهبة في فراش لا قصة فيـه ولا رواية ولا أشعار .

ولعل ذلك يكمن وراء وقوعه في حالات غضـب لا تـدعو للغضب ، أو صمته المطبق في كوارث يحتاجون فيها إلـى آراء إن لم تطرح حلاً فسوف تريق على النفوس المكلومـة نوعا من السلوان ، انظر إليه يوم وقعت يامنة زوجة حسان في حفرة أثناء رجوعها بمقطف الدقيق من الطاحون : أسرع إليها وخبطها بقدمه كى تنفرش المرأة في اضطراب التراب الشرير مع الدقيق الأبيض النقى ، ثم انظر إليه صباح ليلـة قيام أنور أبو فراج بضرب زوجته رسمية بنـت مسـتجاب الثانى ، ظل يضربها بالشومة ـ أقصد الزقْلة ـ في جولات صارخة طوال الليل ، وفى الصباح كان هو الوحيد الذى ظل جالسا أمام دكان شحوت يرنو في صمت إلى ما يتحدثون فيه ـ عنه ـ بمرارة ثم لم يلبث أن نفض التـراب مـن فـوق جلبابه وتحرك متجولاً وسط النخيل يسعى لاصطياد بعـض النسيم كى تعرف هذه الأمة أنه كان صاحب فكرة بناء السـد



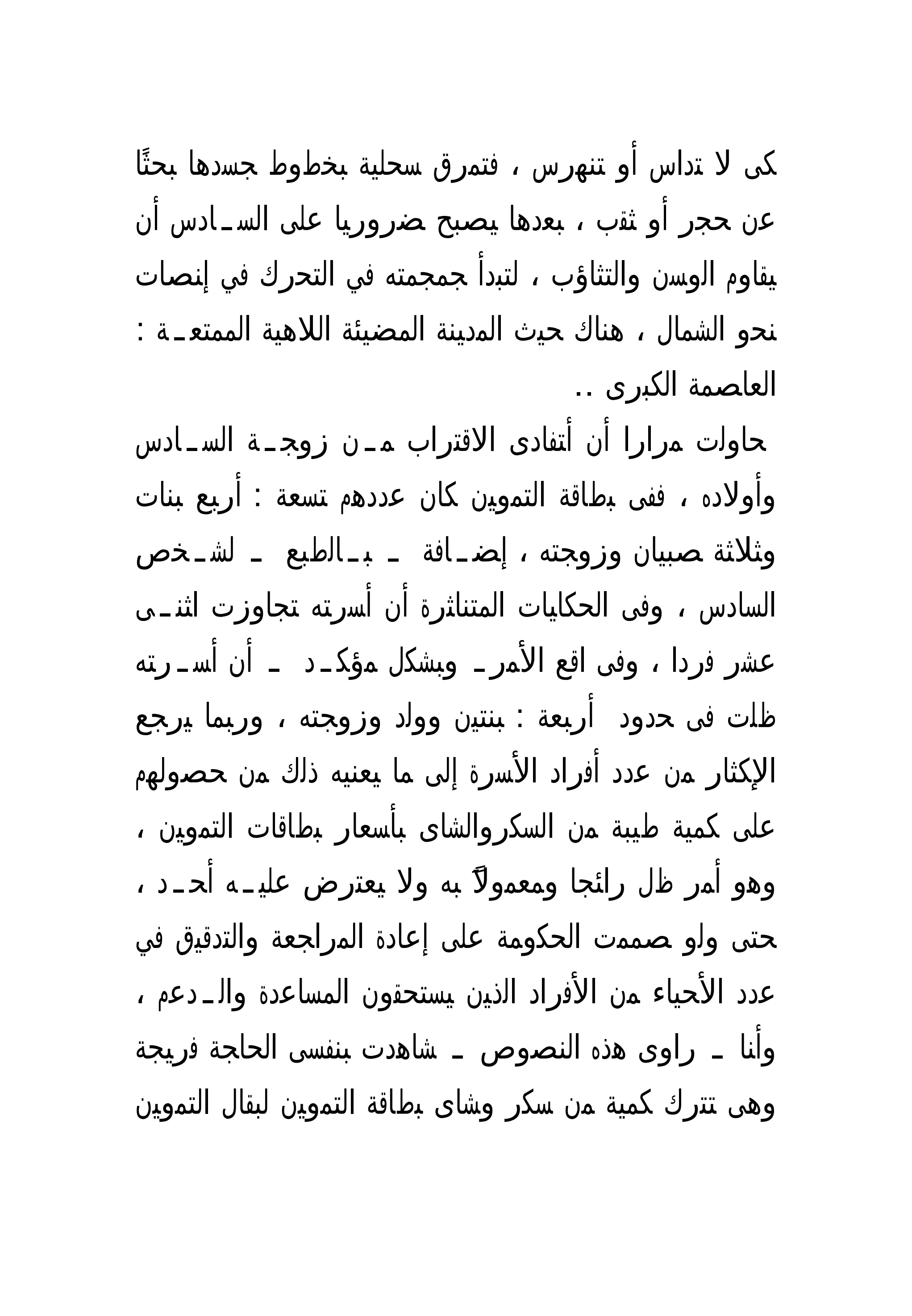
العالى ، وأنه - مستجاب السادس كى لا تنسى - أول مـن نادى بتأميم قناة السويس ، كما أن المنضرة أو المنظـرة أو المندرة التى أقامها آل مستجاب : غرفة واسـعة للضـيوف على رأ س الدرب المشهور لهم - هو الذى صـمم علـى إنشائها حماية لنسائهم من نظرات الأغراب والوافدين علـى بيوتهم الخاصة ، ثم لم تلبث هذه المندرة أن أصبحت مـأوى لسلوك شائن مفعم باللذة بعد منتصف الليل ، ثم إنه كان وراء طرد السفير التركى من العاصمة قبل تأميم القنـاة بأيـام ، وهناك من يزعم أن السادس كان وراء قتل عبد العليم العمدة بطريقة ظلت كامنة في النفوس ، مثيـرة للخيـال الـدموى الخصب ، كى يتم تنفيذها مرة أخرى اغتيالا للـزعيم أنـور السادات في ضواحى العاصمة بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاما ، كما أشيع - في فترات متقطعة - أنه كـان وراء رحلـة أحمد باشا حسنين الشهيرة في الصحراء الغربيـة ، والتـى اكتشف فيها واحات ووديانًا لم يسمع أحد بها من قبل ، وهو الذى - أيضا - كان أول من نادى بزراعة البطيخ والبصل والثوم في حقول قريته التى كانت تأنف وترفض زراعة مثل

هذه النباتات التى لا تتوافق مع كبرياء فلاحيها ، تاركة مثل هذه الأمور تمارسها قرى أخرى أقل شأنًا .

إلا أن الألعن من كل ما استطعنا الانتباه إليه من وقائع ، مـا أشيع بعد ذلك بسنوات من أن الزعيم جمال عبـد الناصـر اقتنصها لصالحه ، تاركًا السادس من آل مستجاب وحيـدا ، يتجول بين غابات النخيل محاولاً أن يصـطاد أو يطـارد أو يحلم بالنوم مع فاتنة أو سمانة أو غراب أوسبع أو سحلية ..

وبينما كانت الجماهير ـ جماعات أو أفراداً ـ تقترب منه أو تبتعد عنه ، تسلقه بالكلام الجـارح أو تشـويه وتضـاحكه بالتعليقات المريرة ، ظل يمعن في الآفاق الممتدة أو أعـالى النخيل أو تراب الفرن ، أو مـآذن المسـاجد ، أو اقتحـام الهالوك للفول الأخضر ، أو تجهيز حبال الليف لتوثيق أحمال الجمال والحمير وكتب المدارس ورقـاب الخصـوم وأذرع النساء الناشزات ، ثم يتراقص على دقات أجراس الكنـائس وتكبيرات الأذكار ، بعدها يمكنه أن ينام تحت ظل حـائط أو شجرة أو جرف ترعة أو أجران قمـح أو أكـوام بـوص ، يسعى إلى البندر القريب ليعود بجريدة المصرى أو المقطـم أو البعكوكة أو الأهرام أو روزاليوسف ، ويحكى ـ إن وجد

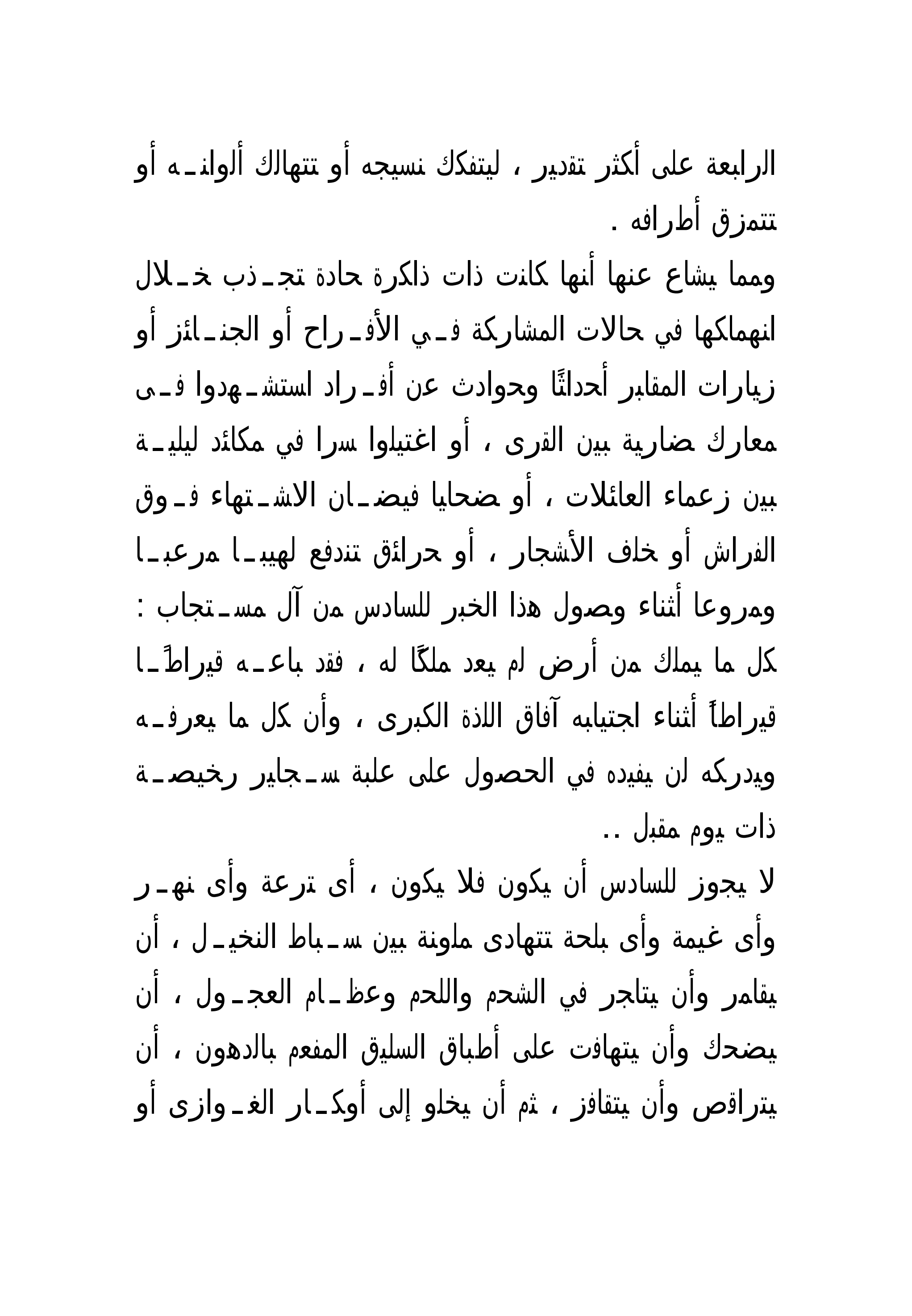
جلسة تصلح لذلك ـ عما كتبه محمد التابعى وأحمد الصاوى أو ما رسمه رخا وجمال كامل وما فهمه من مقال للعقـاد أو سلامة موسى أو بنت الشاطئ ، ظل السـادس يحـس بأنـه يعرف أكثر مما يعرفون ، ويدرك ما لا يصلون إلى إدراكه ، ويسمع في اختناق بالغ السعادة ما يتسرب على المصاطب حول مباريات الاشتهاء التى تديرها الحاجة فيـات ـ وهـو اسمها دون الانتباه إلى أن ذلك اللفظ تحمله سيارة إيطالية ـ في قاعات قصور الأثرياء ، حيث كان الانفعال الطافح يصل إلى الذروة حتى يسيل على الفـراش والسـجاجيد والـبلاط وأعقاب الأبواب ، وأنفاس الحشيش تهوم في سماوات أبخرة الثلج الحارة ، ونماذج الرغبة العليا تتساقط تحت ظلال سيرة تحية كاريوكا وصفية حلمى وأحمد سالم وعمرو بن العـاص وزبيدة السوداء وأحمد باشا حسنين في انتظار إخراج جثـة اسمهان من قاع المصرف ، وكان السادس يضحك غاضـبا ويشكك رافضا ويمعن مستزيدا ، ثم لا يلبث أن يغفو علـى أطراف المصطبة دون اهتمام بمن يقوم أو يلاعن أو يدافع ، والنسيم القروى يتهامس في شرايين الأذان ليخترق الأفئـدة والألباب ، حيث تحاول عقربة أن تلتف بين مراكيب الأقدام



كى لا تداس أو تنهرس ، فتمرق سحلية بخطوط جسدها بحثًا عن حجر أو ثقب ، بعدها يصبح ضروريا على السـادس أن يقاوم الوسن والتثاؤب ، لتبدأ جمجمته في التحرك في إنصات نحو الشمال ، هناك حيث المدينة المضيئة اللاهية الممتعـة : العاصمة الكبرى ..

حاولت مرارا أن أتفادى الاقتراب مـن زوجـة السـادس وأولاده ، ففى بطاقة التموين كان عددهم تسعة : أربع بنات وثلاثة صبيان وزوجته ، إضـافة ـ بـالطبع ـ لشـخص السادس ، وفى الحكايات المتناثرة أن أسرته تجاوزت اثنـى عشر فردا ، وفى اقع الأمرـ وبشكل مؤكـد ـ أن أسـرته ظلت فى حدود أربعة : بنتين وولد وزوجته ، وربما يرجع الإكثار من عدد أفراد الأسرة إلى ما يعنيه ذلك من حصولهم على كمية طيبة من السكروالشاى بأسعار بطاقات التموين ، وهو أمر ظل رائجا ومعمولاً به ولا يعترض عليـه أحـد ، حتى ولو صممت الحكومة على إعادة المراجعة والتدقيق في عدد الأحياء من الأفراد الذين يستحقون المساعدة والـدعم ، وأنا ـ راوى هذه النصوص ـ شاهدت بنفسى الحاجة فريجة وهى تترك كمية من سكر وشاى بطاقة التموين لبقال التموين

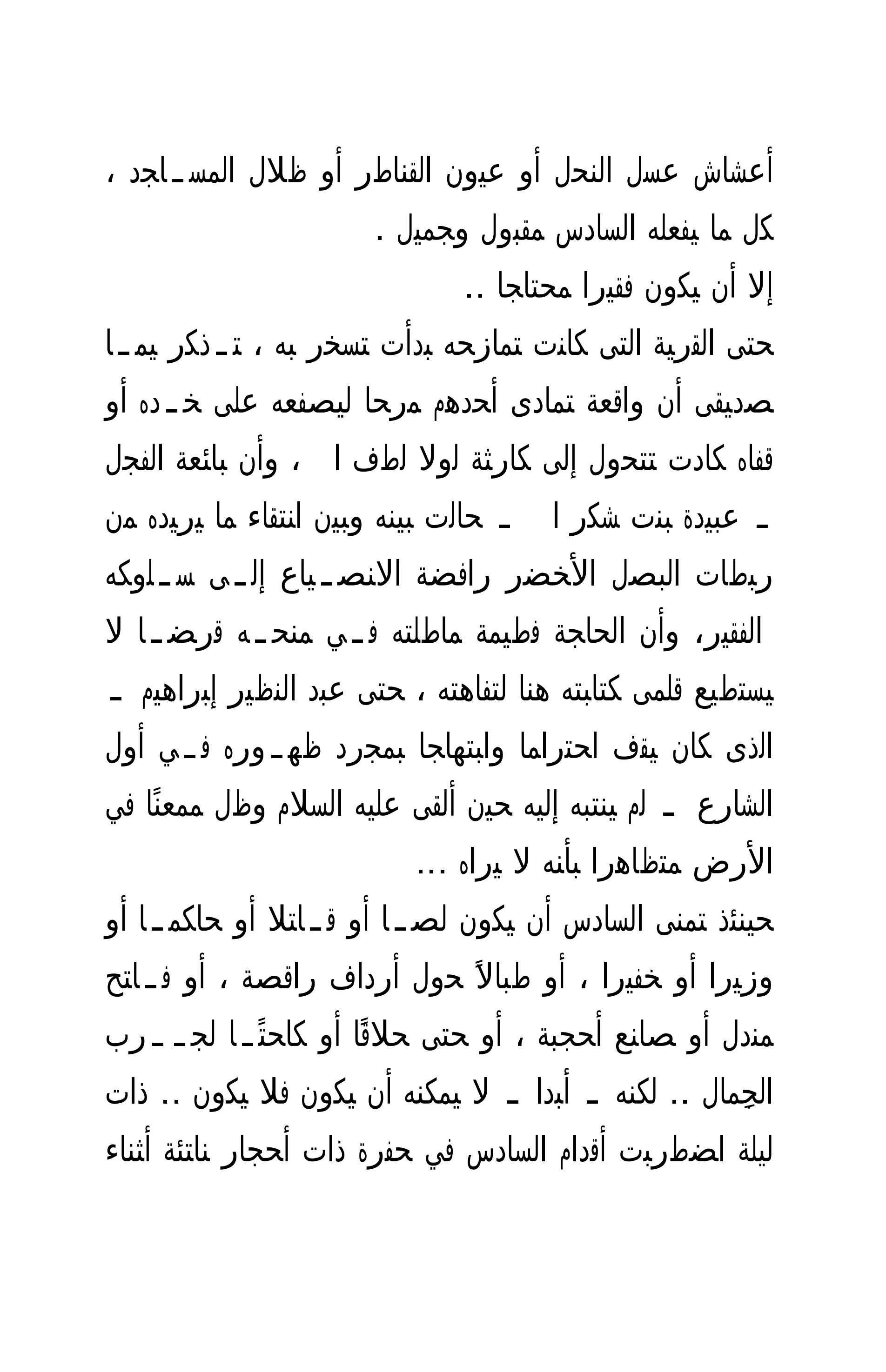
ليبيعها ـ في حرية وبأى سعر لحسـابه ـ لتحصـل علـى نصف أقة سكر وربع أوقية شاى مجانًا ـ أى مقابل الفـرق في الأسعار ، كان عدد أفراد أسرتها في البطاقـة خمسـة ، وكانت الحاجة فريجة أرملة لا عائل ولا إنجـاب لهـا ، ولا أفراد يصلحون للدخول في بطاقتها ولا أعرف مدى انطبـاق هذا التشكيك على السادس من آل مستجاب ، لكنى سمعت أن زوجته كانت من أجمل النساء ، ذات سيرة عطرة ، وعائلتها ـ التى تنتمى إليها حتى بعد اقترانها بالسادس ـ من أرقـى العائلات ، يباح لأفرادها مجالسة الأثريـاء ، والمصـافحة الحارة دون تقبيل الأكف ـ أو الكفوف ـ كما يحـدث مـن الآخرين ، كما أنها كانت من أوائل النساء اللاتى اسـتخدمن الرغفان ـ أو الرغائف ـ خبزا للبيت دون البتاو ، ويقـال إنها تستطيع فك الخط والتوقيع دون استخدام أختام ، وتذهب إلى البندر لشراء ما تحتاجه أسرتها من قماش أو أحذيـة أو جوارب دون الوقوع تحت سـطوة تقسـيط باعـة الشـيت الجوالين ، لأن قماشهم محروق من التخـزين ـ أو كونـه مصنوعا من خيوط ألياف هابطة الأوصاف ، حيث لا يلبـث أن تظهر عيوبه ـ هذا القماش ـ بعـد الغسـلة الثالثـة أو



الرابعة على أكثر تقدير ، ليتفكك نسيجه أو تتهالك ألوانـه أو تتمزق أطرافه .

ومما يشاع عنها أنها كانت ذات ذاكرة حادة تجـذب خـلال انهماكها في حالات المشاركة فـي الأفـراح أو الجنـائز أو زيارات المقابر أحداثًا وحوادث عن أفـراد استشـهدوا فـى معارك ضارية بين القرى ، أو اغتيلوا سرا في مكائد ليليـة بين زعماء العائلات ، أو ضحايا فيضـان الاشـتهاء فـوق الفراش أو خلف الأشجار ، أو حرائق تندفع لهيبـا مرعبـا ومروعا أثناء وصول هذا الخبر للسادس من آل مسـتجاب : كل ما يملك من أرض لم يعد ملكًا له ، فقد باعـه قيراطًـا قيراطاً أثناء اجتيابه آفاق اللذة الكبرى ، وأن كل ما يعرفـه ويدركه لن يفيده في الحصول على علبة سـجاير رخيصـة ذات يوم مقبل ..

لا يجوز للسادس أن يكون فلا يكون ، أى ترعة وأى نهـر وأى غيمة وأى بلحة تتهادى ملونة بين سـباط النخيـل ، أن يقامر وأن يتاجر في الشحم واللحم وعظـام العجـول ، أن يضحك وأن يتهافت على أطباق السليق المفعم بالدهون ، أن يتراقص وأن يتقافز ، ثم أن يخلو إلى أوكـار الغـوازى أو

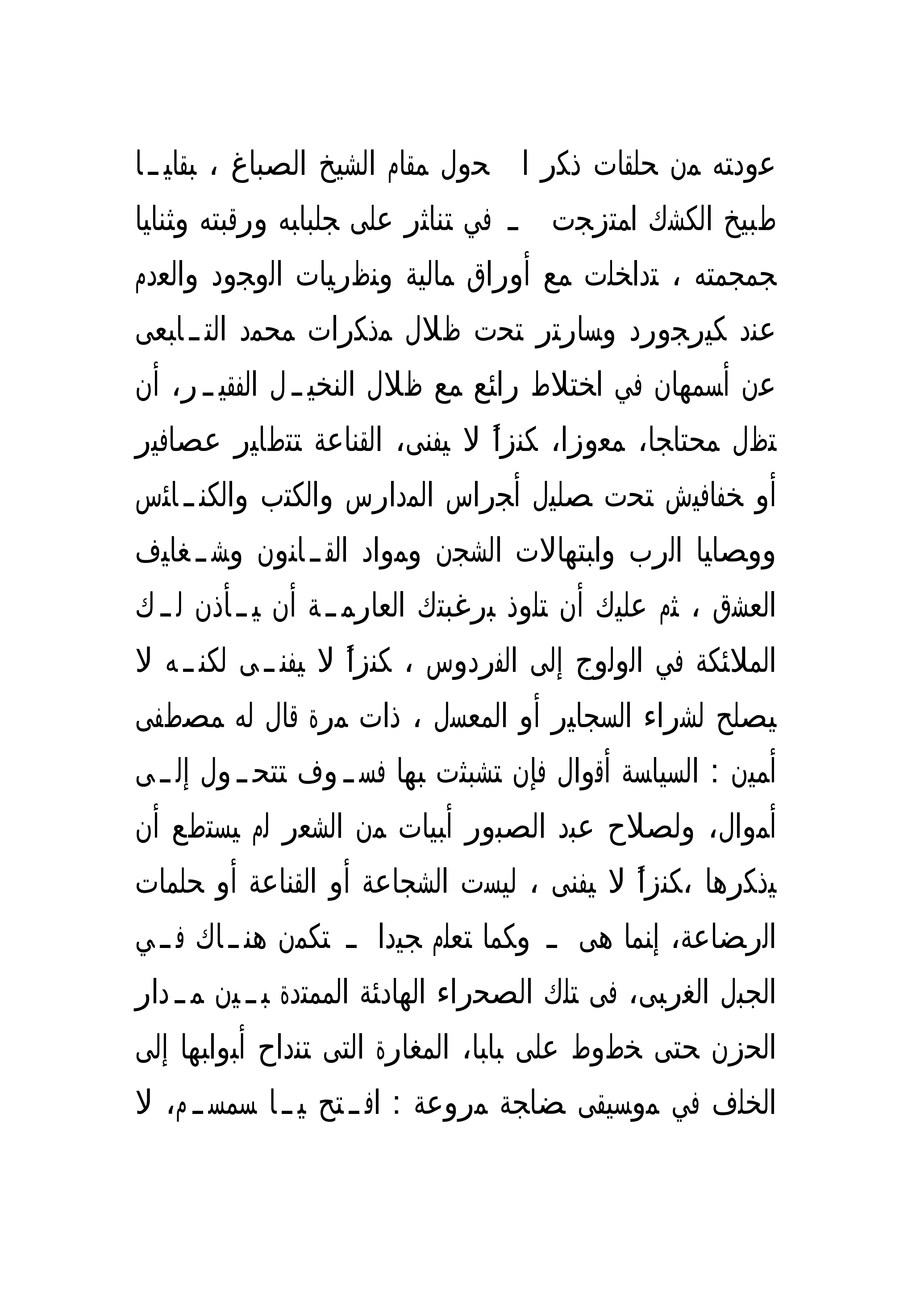


أعشاش عسل النحل أو عيون القناطر أو ظلال المسـاجد ، كل ما يفعله السادس مقبول وجميل .

إلا أن يكون فقيرا محتاجا ..

حتى القرية التى كانت تمازحه بدأت تسخر به ، تـذكر يمـا صديقى أن واقعة تمادى أحدهم مرحا ليصفعه على خـده أو قفاه كادت تتحول إلى كارثة لولا لطف ا ، وأن بائعة الفجل ـ عبيدة بنت شكر ا ـ حالت بينه وبين انتقاء ما يريده من ربطات البصل الأخضر رافضة الانصـياع إلـى سـلوكه الفقير، وأن الحاجة فطيمة ماطلته فـي منحـه قرضـا لا يستطيع قلمى كتابته هنا لتفاهته ، حتى عبد النظير إبراهيم ـ الذى كان يقف احتراما وابتهاجا بمجرد ظهـوره فـي أول الشارع ـ لم ينتبه إليه حين ألقى عليه السلام وظل ممعنًا في الأرض متظاهرا بأنه لا يراه ...

حينئذ تمنى السادس أن يكون لصـا أو قـاتلا أو حاكمـا أو وزيرا أو خفيرا ، أو طبالاً حول أرداف راقصة ، أو فـاتح مندل أو صانع أحجبة ، أو حتى حلاقًا أو كاحتًـا لجـرب الجِمال .. لكنه ـ أبدا ـ لا يمكنه أن يكون فلا يكون .. ذات ليلة اضطربت أقدام السادس في حفرة ذات أحجار ناتئة أثناء



عودته من حلقات ذكر ا حول مقام الشيخ الصباغ ، بقايـا طبيخ الكشك امتزجت ـ في تناثر على جلبابه ورقبته وثنايا جمجمته ، تداخلت مع أوراق مالية ونظريات الوجود والعدم عند كيرجورد وسارتر تحت ظلال مذكرات محمد التـابعى عن أسمهان في اختلاط رائع مع ظلال النخيـل الفقيـر، أن تظل محتاجا، معوزا، كنزاً لا يفنى، القناعة تتطاير عصافير أو خفافيش تحت صليل أجراس المدارس والكتب والكنـائس ووصايا الرب وابتهالات الشجن ومواد القـانون وشـغايف العشق ، ثم عليك أن تلوذ برغبتك العارمـة أن يـأذن لـك الملائكة في الولوج إلى الفردوس ، كنزاً لا يفنـى لكنـه لا يصلح لشراء السجاير أو المعسل ، ذات مرة قال له مصطفى أمين : السياسة أقوال فإن تشبثت بها فسـوف تتحـول إلـى أموال، ولصلاح عبد الصبور أبيات من الشعر لم يستطع أن يذكرها ،كنزاً لا يفنى ، ليست الشجاعة أو القناعة أو حلمات الرضاعة، إنما هى ـ وكما تعلم جيدا ـ تكمن هنـاك فـي الجبل الغربى، فى تلك الصحراء الهادئة الممتدة بـين مـدار الحزن حتى خطوط على بابا، المغارة التى تنداح أبوابها إلى الخلف في موسيقى ضاجة مروعة : افـتح يـا سمسـم، لا

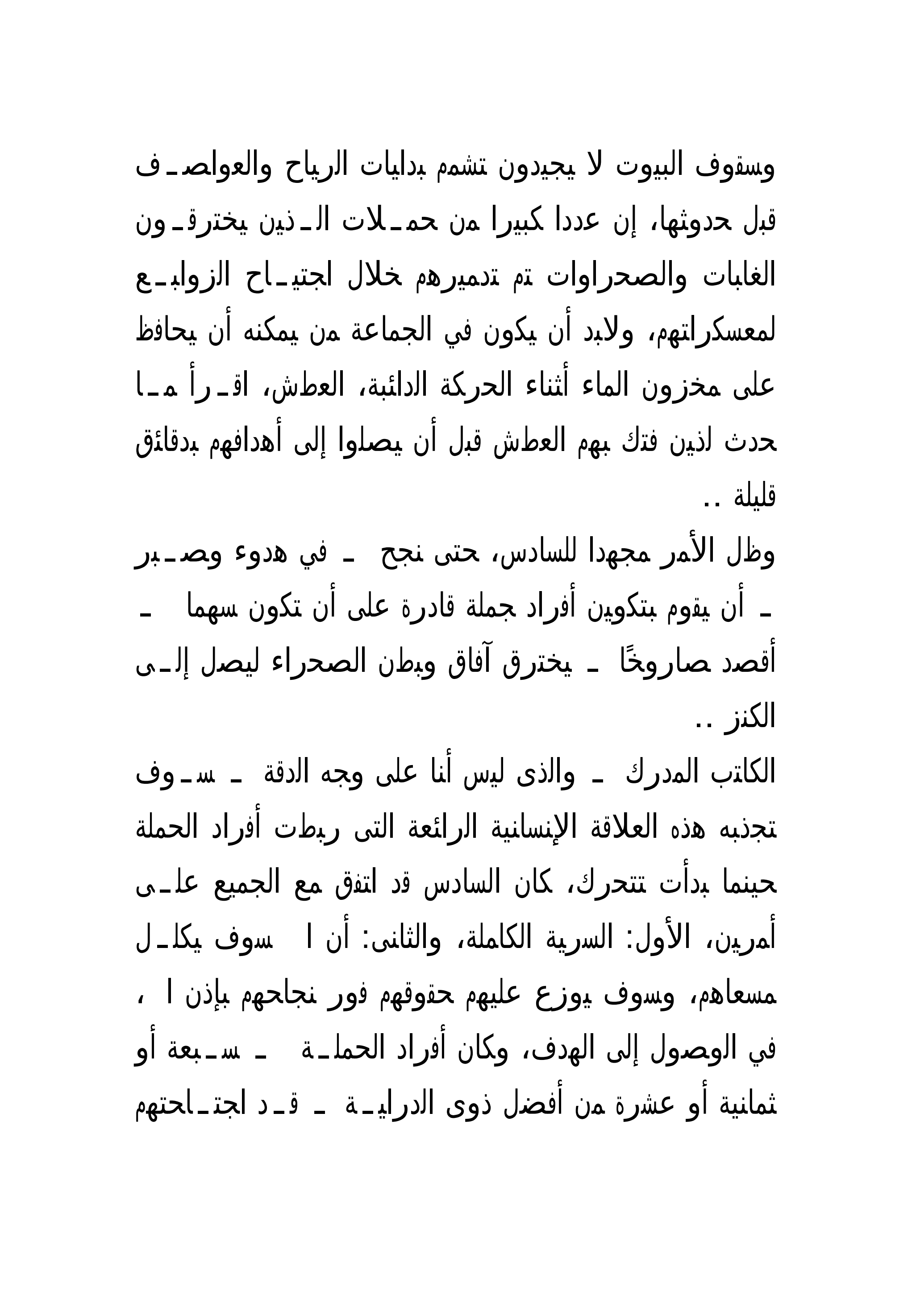
تحاول أن تقع أسيرا بين أمواج سفينة مضطربة تنقلب تحت سطوة الأعاصير، لتصل آخر الأمر إلى جزيرة خاوية تظل مرعوبا فيها تحت سطوة الوحدة التى تداهمك الآن، حاول ألا تتشبث ببساط كريم الدين أو لص بغداد فسوف يبتلعك ـ في آفاق الرياح ـ بطن الحوت، أنت تعرف ونحن نعرف، هناك في الجبل الغربى يكمن الكنز الأثير الذى طحن أحلام القرية كلها .. كنزاً لا يفنى ولا يخضع للقناعة أبدا ..

ليلتها قرر السادس أن يصل إلى الكنز، أن يحصـل عليـه، وظل يداور ويناور ويمعن، ثم لم يلبث أن وصل إلى فكرة ما وردت قط في دوائر الحكايات، أن يعد العدة التى لم يستطع واحد من قبل أن ينتبه إلى الاستعداد بها ..

خمسة أو ستة أو عشرة أشخاص، حملة قادرة على اختـراق بواطن رمال الصحراء ليصل إلى الكنز، بعدها بدأ السـادس سعيا وراء تجهيز هذه الحملة، واحد من ذوى الدرايـة فـي صناعة الفواخير من قلل وأزيار يمكنه أن يفرز ـ بـالعين ولمس الأصابع ـ الرمال الناعمة من الرمال (الحرشـة) أى ذات الذرات والحبيبات الخشنة، وواحـد يمكنـه أن يحـس بإمعان العيون وروائح الغبار : بلمعة دقـائق التبـر ـ أى

الذهب ـ الناعم التى لا يمكن للذين يجرون خلف المحـارث أو النوارج أو صيد السمك أن يدركوها، فماذا لو أن عقربـة اخترقت أخاديد الرمال وأشرعت ذبانها السام الـدموى، ثـم ماذا لو أن حية ـ ثعبانا كانت أو طريشة ـ ظهـرت فجـأة ورفعت رأسها ذا القرون فوق فمها المفتوح بالأنيـاب التـى تبخّ السموم؟ ثم لابد من شخص يمكنه أن ينتبه إلـى حركـة الوطواط التى تتطاير في أماكن الخراب أسرابا ـ أو أفرادا ـ تحوم حول الكنز، ومن الذى يمكنـه أن ينتبـه إلـى أن السحالى الهاربة بخطوط جسدها التى تفح باللمعان الأصـفر يمكن أن تقودك إلى الكنز، هل هى الحملة التى قادها نابليون بونابرت لتغزو البلاد وتدمر مواطن النوم لكل الذين يعيشون على سطح الوطن؟

دعك الآن من ثروتك الثقافية لتسعى جيدا في استكمال حملتك للحصول على الكنز الذى يخرجك من بين خرائب القناعـة، وعليك أن تتذكر أبياتًا من شعر قديم وحديث على شـواطئ الأنهار وخرائب المدن وأحزان الروايات المتوالية، أنت الآن تسعى، وسوف تحقق الأمل، وأن تـدرك تجريـف الرمـل وتحريك الصخور، كما أن الذين يحتمون بالحوائط والجدران



وسقوف البيوت لا يجيدون تشمم بدايات الرياح والعواصـف قبل حدوثها، إن عددا كبيرا من حمـلات الـذين يخترقـون الغابات والصحراوات تم تدميرهم خلال اجتيـاح الزوابـع لمعسكراتهم، ولابد أن يكون في الجماعة من يمكنه أن يحافظ على مخزون الماء أثناء الحركة الدائبة، العطش، اقـرأ مـا حدث لذين فتك بهم العطش قبل أن يصلوا إلى أهدافهم بدقائق قليلة ..

وظل الأمر مجهدا للسادس، حتى نجح - في هدوء وصـبر - أن يقوم بتكوين أفراد جملة قادرة على أن تكون سهما - أقصد صاروخًا - يخترق آفاق وبطن الصحراء ليصل إلـى الكنز ..

الكاتب المدرك - والذى ليس أنا على وجه الدقة - سـوف تجذبه هذه العلاقة الإنسانية الرائعة التى ربطت أفراد الحملة حينما بدأت تتحرك، كان السادس قد اتفق مع الجميع علـى أمرين، الأول: السرية الكاملة، والثانى: أن ا سوف يكلـل مسعاهم، وسوف يوزع عليهم حقوقهم فور نجاحهم بإذن ا ، في الوصول إلى الهدف، وكان أفراد الحملـة - سـبعة أو ثمانية أو عشرة من أفضل ذوى الدرايـة - قـد اجتـاحتهم

الأمنيات ذاتها التى داس عليها الفقر أو العـوز أو الإمـلاق فظلت دفينـة الفـراش والجمـاجم والأغـانى والمواويـل والحكايات، وكل واحد منهم كان يدرك ـ بالحتم ـ ما يدور فـي عقـول الآخـرين، وانتشـت المواويـل والتعليقـات والمصطلحات المرحة (بعضها لم يرد في أى كتاب بسـبب ميلها للبذاءة)، وظلت السحب تبتسم وتريق علـى السـادس نوعا من العزيمة الوارفة، وأطل القمر في غير موعده ليملأ الجوانح بالمتعة المتراقصة، فما وقع واحد منهم في حفرة أو قناة أو بقعة موحلة، وما ارتطمت قدم في حجر أو صخرة أو طوبة أو مسمار مدفون في التراب، وما انغرزت شوكة فـي كف أو بطن قدم أو ظهر استند إلى شجرة أو نخلة، والجـو الهادئ الرائق يخلق مراوحة بالغة الجمال بين أفراد أحبـوا عنترة وعبلة وحسن ونعيمة وقيس وليلى وروميو وجولييت، فانصاعت أجساد الإناث في تلافيف الحكايات تحت سـطوة الذكورة المتحركة نحو الصحراء، ليصلوا آخر نهـار إلـى حافتها، فيلقوا بالفؤوس والمعاول والمجـارف والضـحكات والصفائح واللفائف والمقاطف جانبا، وينسابوا ـ جميعـا ـ في عالم الصمت، أقصد النوم العميق ..

في الفجر ـ أقصد قبل أن تحاول الشمس الإشراق ـ بـدأت الحملة أخطر حركاتها، عيونها ـ عندما تحركت خطواتها ـ بدأت تنفذ في سطوح الصخور ومساحات الرمـال ، كانـت تتنسم أنوفهم كل روائح الكـون، فـاخترقوا الصـباح، ثـم الظهيرة، ثم إرهاق آخر النهار، وبدأت الأغانى تتسال فـي الآفاق لتفتح الغموض الأصفر، وخلفهم كل أنـواع خضـرة الوادى تتمايل حول البيوت مع النسيم الهادئ، نهار ثم ليـل، مواويل ثم مرح ثم حركة دائبة، يوم فيومان، ثم أربعة حتـى كان الإمعان الشديد في ثغرات أو فتحات بين صخور صلدة شرسة تحتضن في أمومة تلالاً صغيرة من رمال تسعى بينها أسراب من نمل أسود غليظ ..

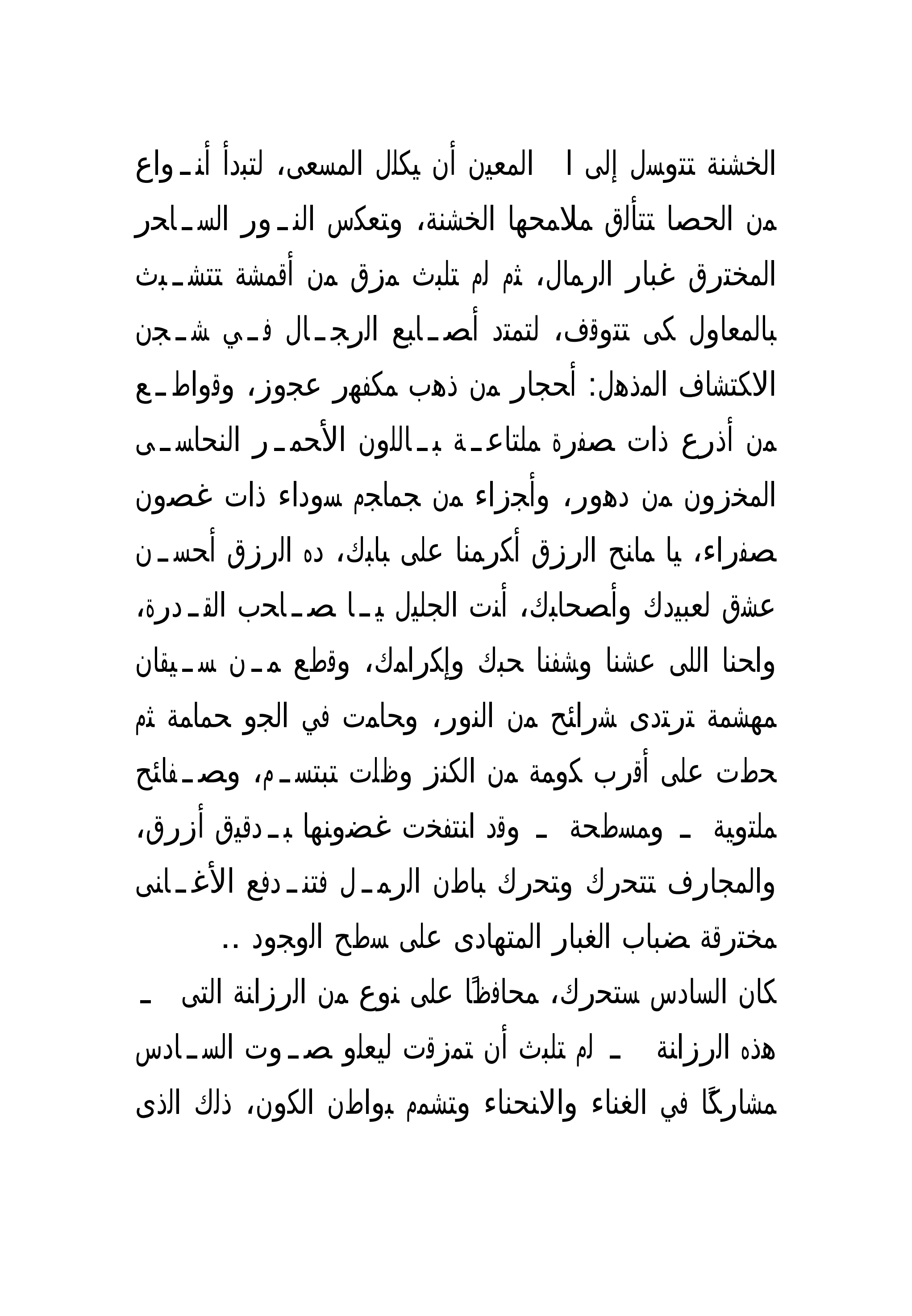
وبمجرد أن بدأت المعاول تحرك الصخور، ظهرت ثعـابين تتقافز مهاجمة الوجوه قبل الأجساد، ثم عقارب ذات أحجام لم يشهدوها من قبل، يصل حجم بعضها إلى ما يتجـاوز ربـع المتر ـ أى شبرين، وفى مقدم كل واحدة كُلاّبتان واضـحتا القوة الشرسة، ومؤخرة كل عقرب ـ مثل الدبابـة ـ دبـر منتفخ محمول لأعلى، ذو مخالب مهيأة لاختـراق جسـد أى واحد منهم ليصب سمومه الفاعلة المدمرة، وبعـد ارتجـاف

سريع قام من له دراية بالعقارب باستحضار قدراته الفذة في تلاوة نصوص السطوة عليها، بدأت همسا ثم لـم تلبـث أن ارتفعت في صوت آمر صارخ وعصاه ترتفع في الجو ليس لضربها بل للهيمنة عليها، أسراب من العقـارب المداهمـة توقفت فجأة، وبدأت الأوامر إليها ألا تعـود إلـى خـدرها، فانفتحت سيقان رجال الحملة لتعبر العقارب ذليلة مسـتكينة، وقد انخفضت كُلاّباتها وذباناتها، وانكمشت مؤخراتها ..

ا أكبر .. لا كائن يمكنه أن يواجه القدرة (الدفاعيـة) فـي المواجهة، حتى الثعابين خرجت من أوكارها بين الصـخور ذليلة مستكينة تزحف على الرمال في حركة البؤساء، لتنداح بعيدا في مسطحات الرمال ..

الحمد .. يوم واثنان، وخمسة، والنجوم تمعن، والصخور ترتعب، وبعد نوم قلق.. تحركت الصـخور، لينفـتح بـاب الأرض، فيقف السادس على رأس جماعته طالبـا مـنهم أن يصلوا ـ جميعا ـ صلاة الشكر ..

ظل الوادى الأخضر بعيدا، وصفرة الرمال تتسـع صـانعة إحساسا بالقدرة الفائقة لأفـراد الحملـة، لتنـدفع المعـاول والمجاريف مخترقة فؤاد الرمـال، وتراقصـت الأغنيـات



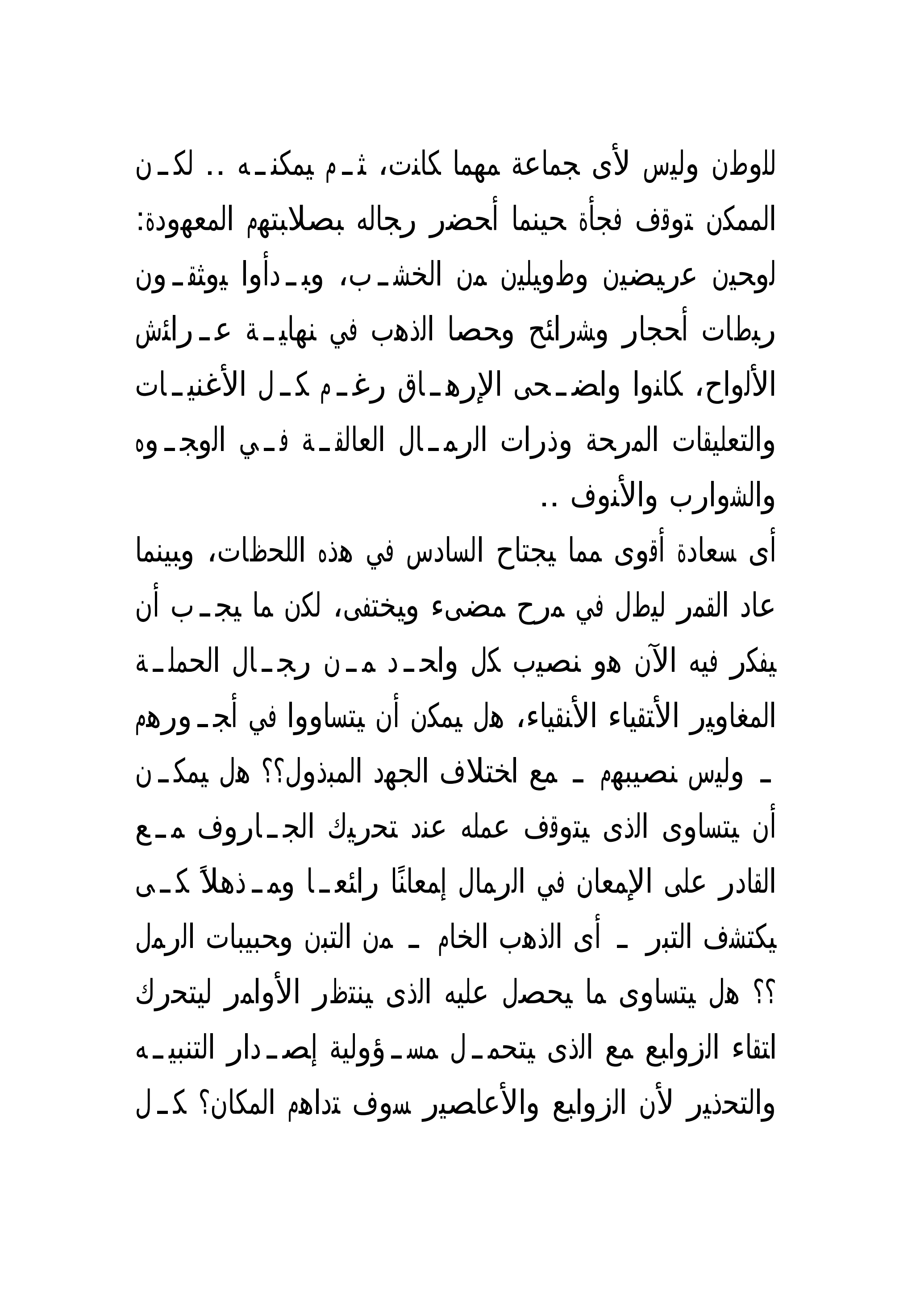
الخشنة تتوسل إلى ا   المعين أن يكلل المسعى، لتبدأ أنـواع من الحصا تتألق ملامحها الخشنة، وتعكس النـور السـاحر المخترق غبار الرمال، ثم لم تلبث مزق من أقمشة تتشـبث بالمعاول كى تتوقف، لتمتد أصـابع الرجـال فـي شـجن الاكتشاف المذهل: أحجار من ذهب مكفهر عجوز، وقواطـع من أذرع ذات صفرة ملتاعـة بـاللون الأحمـر النحاسـى المخزون من دهور، وأجزاء من جماجم سوداء ذات غصون صفراء، يا مانح الرزق أكرمنا على بابك، ده الرزق أحسـن عشق لعبيدك وأصحابك، أنت الجليل يـا صـاحب القـدرة، واحنا اللى عشنا وشفنا حبك وإكرامك، وقطع مـن سـيقان مهشمة ترتدى شرائح من النور، وحامت في الجو حمامة ثم حطت على أقرب كومة من الكنز وظلت تبتسـم، وصـفائح ملتوية ـ ومسطحة ـ وقد انتفخت غضونها بـدقيق أزرق، والمجارف تتحرك وتحرك باطن الرمـل فتنـدفع الأغـانى مخترقة ضباب الغبار المتهادى على سطح الوجود ..

كان السادس ستحرك، محافظًا على نوع من الرزانة التى ـ هذه الرزانة ـ لم تلبث أن تمزقت ليعلو صـوت السـادس مشاركًا في الغناء والانحناء وتشمم بواطن الكون، ذلك الذى

لم يلبث أن تحول إلى كنز من أكوام المشهد الرائع، الذى دفع السادس أن يمسك بالمعول ويبدأ الرقص تحت وقع تصـفيق المعاول والمجاريف، حتى أحس الجميع بالإرهاق، وبالجوع، وبمتعة الاستلقاء فوق المسطح الممتد إلى شرايين القلـوب، ليعم الصمت الجميع في الهدوء الساخن فوق الرمال.

روايات عديدة تصل إلى ذروة أهدافها بمجرد الوصول إلى الكنز، حيث تنفتح أبواب المغـارات والأمنيـات والكهـوف واللذات والحانات والأنفاق، إلا أن بطلى غير هؤلاء الـذين أشرنا إليهم من قبل، فما فكر واحد منهم في امتلاك غرفـة واسعة ذات مكتبة لها أجنحة تتهادى بها الكتب وسـيمفونيات الموسقى وألبومات اللوحات (التى سوف يمتلكها - أو يمتلك نسخة من لوحاتها عندما يعثر على الكنز القـادم)، كمـا أن اصحاب تاريخ العثور على الكنوز لم ينتبهوا لحقوق الـرب العظيم من زكاة وصدقة وتيسير أو تسـهيل حـل مشـاكل المعوزين، وبينما كان مستجاب السادس - وقـد اجتاحـت جوانحه تيارات من الإحساس المفعم بالخير - سوف يتوجه بنفسه - فور وصوله إلى قريته - إلى المدارس ليضع تحت يد نظارها أو مديريها : المبالغ المناسـبة لإزالـة عوائـق

استكمال التلاميذ لدراستهم، دعك الآن من كونه ـ هو نفسه ـ وقع في حفرة العجز عن دفع مثل هذه المصاريف، كمـا أن مئذنة جامع الشاويش الأمير سنان تحتاج إلى صيانة تليق بشموخها، ويمكنه ـ خدمة قومية للوطن ـ أن يسأل عما قد تحتاجه الكنيسة من إصلاح في الجـدران أو الأجـراس أو معالجة اعوجاج قد يكون أصاب الصلبان، وهناك موضـوع البئر التى في طريق السوق والسابق إلقـاء ابـن البطـران الصبى النشيط في أعماقها نكاية في أهله نتيجة تصادم بـين عائتين، هل يردمها أو يقيم حول فتحتها مضخة تشفط المياه من عمقها يستثمر تجاربه ذات الثقافة العالية فيقيم حـول أو فوق البئر مبنى يشابه السبيل الـذى تعـودت العاصـمة أن تتعامل معه مركزا للشراب السلسبيل للعطشـى والعـابرين؟ سوف يطلق عليها بئر البطران متوازيا مع بئر يوسف النبى القائمة في قلعة محمد على؟ وكيف يفعل ذلك وبئر السـوق خلف قصور عائلة القمص الثرية، إنهم أقباط وسـوف يـتم احتساب بئر البطران داخل مجدهم الخالد في إقامة الكنـائس والمدرسة الأولية (أو الإلزامية) ومدرسة البنـات : أشـهر مدرسة وأقدم مدرسة للبنات في المنطقة كلها، لا يهم : المجد



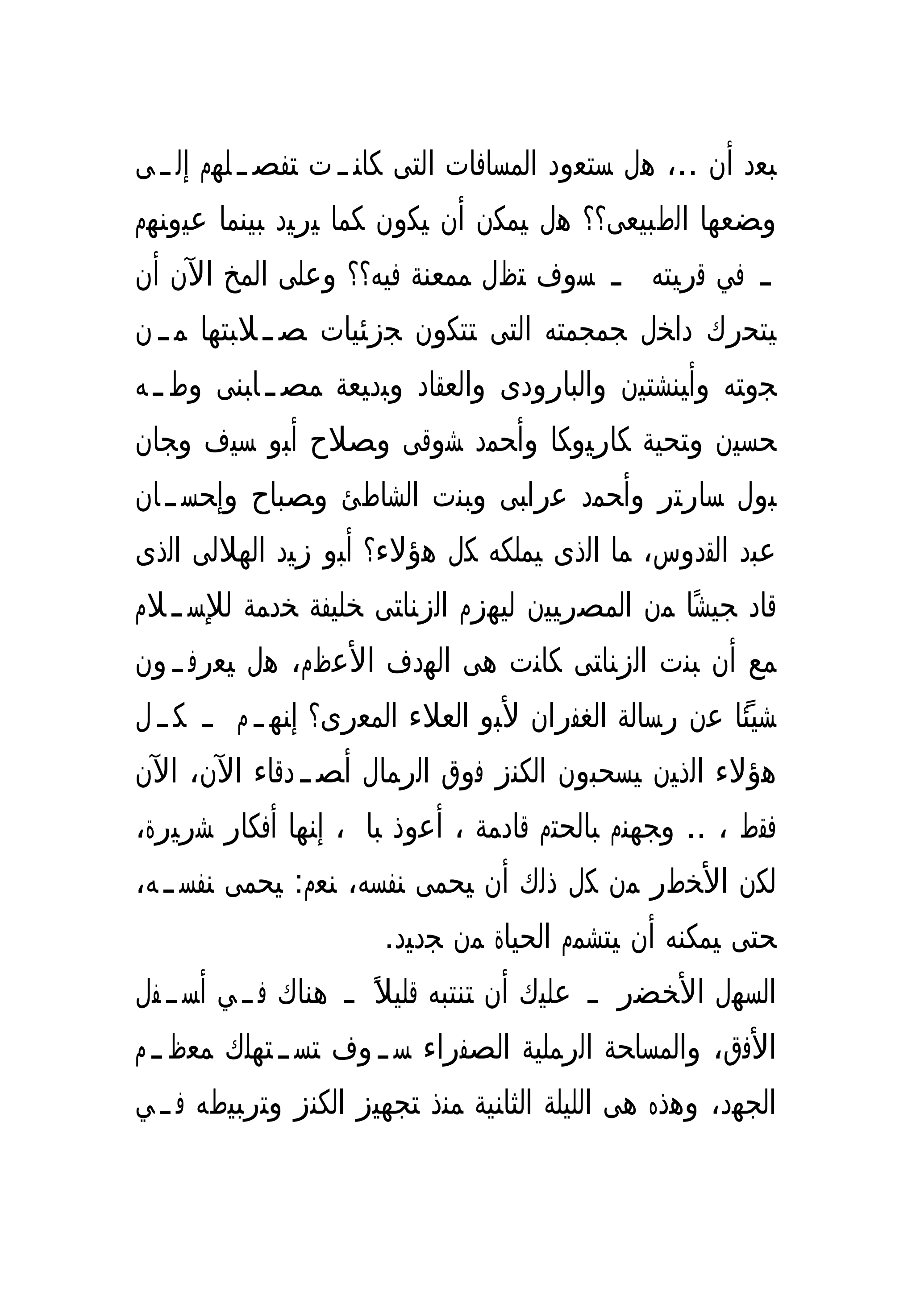
للوطن وليس لأى جماعة مهما كانت، ثـم يمكنـه .. لكـن الممكن توقف فجأة حينما أحضر رجاله بصلابتهم المعهودة: لوحين عريضين وطويلين من الخشـب، وبـدأوا يوثقـون ربطات أحجار وشرائح وحصا الذهب في نهايـة عـرائش الألواح، كانوا واضـحى الإرهـاق رغـم كـل الأغنيـات والتعليقات المرحة وذرات الرمـال العالقـة فـي الوجـوه والشوارب والأنوف ..

أى سعادة أقوى مما يجتاح السادس في هذه اللحظات، وبينما عاد القمر ليطل في مرح مضىء ويختفى، لكن ما يجـب أن يفكر فيه الآن هو نصيب كل واحـد مـن رجـال الحملـة المغاوير الأتقياء الأنقياء، هل يمكن أن يتساووا في أجـورهم ـ وليس نصيبهم ـ مع اختلاف الجهد المبذول؟؟ هل يمكـن أن يتساوى الذى يتوقف عمله عند تحريك الجـاروف مـع القادر على الإمعان في الرمال إمعانًا رائعـا ومـذهلاً كـى يكتشف التبر ـ أى الذهب الخام ـ من التبن وحبيبات الرمل ؟؟ هل يتساوى ما يحصل عليه الذى ينتظر الأوامر ليتحرك اتقاء الزوابع مع الذى يتحمـل مسـؤولية إصـدار التنبيـه والتحذير لأن الزوابع والأعاصير سوف تداهم المكان؟ كـل

شىء يمكن الوصول إلى تسويته .. المهم أن يكلل هذا الجهد باليمن والبركة بعد أن وصلوا إلى هذا الكنز الثمين وقبل أن يطلب (حجر معسل) حتى يصبح تفكيره أكثر تركيزا وأكثـر جدوى، وأكثر عدلاً، تحت سطوة دخان المعسل في الهـواء الصحراوى الهادئ أى قبل أن يكون صاحب برنامج سـلس يصلح لتنفيذه، دون ضجيج، داهمته قطعة مـن الاستفسـار الأسود المشابه لضفدعة تقفز من بركة آسنة وتقف في طريق جواد يختال متمايلاً في فروسيته ذات كبرياء: وهل ـ يا أيها المفكر ـ سوف يتركك كل هؤلاء الرفاق لتنعم بكنزك هـذا بعد حصولهم على أجـورهم؟؟ هـل سيغمضـون عيـونهم وينامون في هدوء لأنهم اشتروا الملابس والسجاير و "أبكاو" المعسل وبودرة الحشيش وعدة أرطال من اللحوم ذات السمنة الفاخرة؟؟

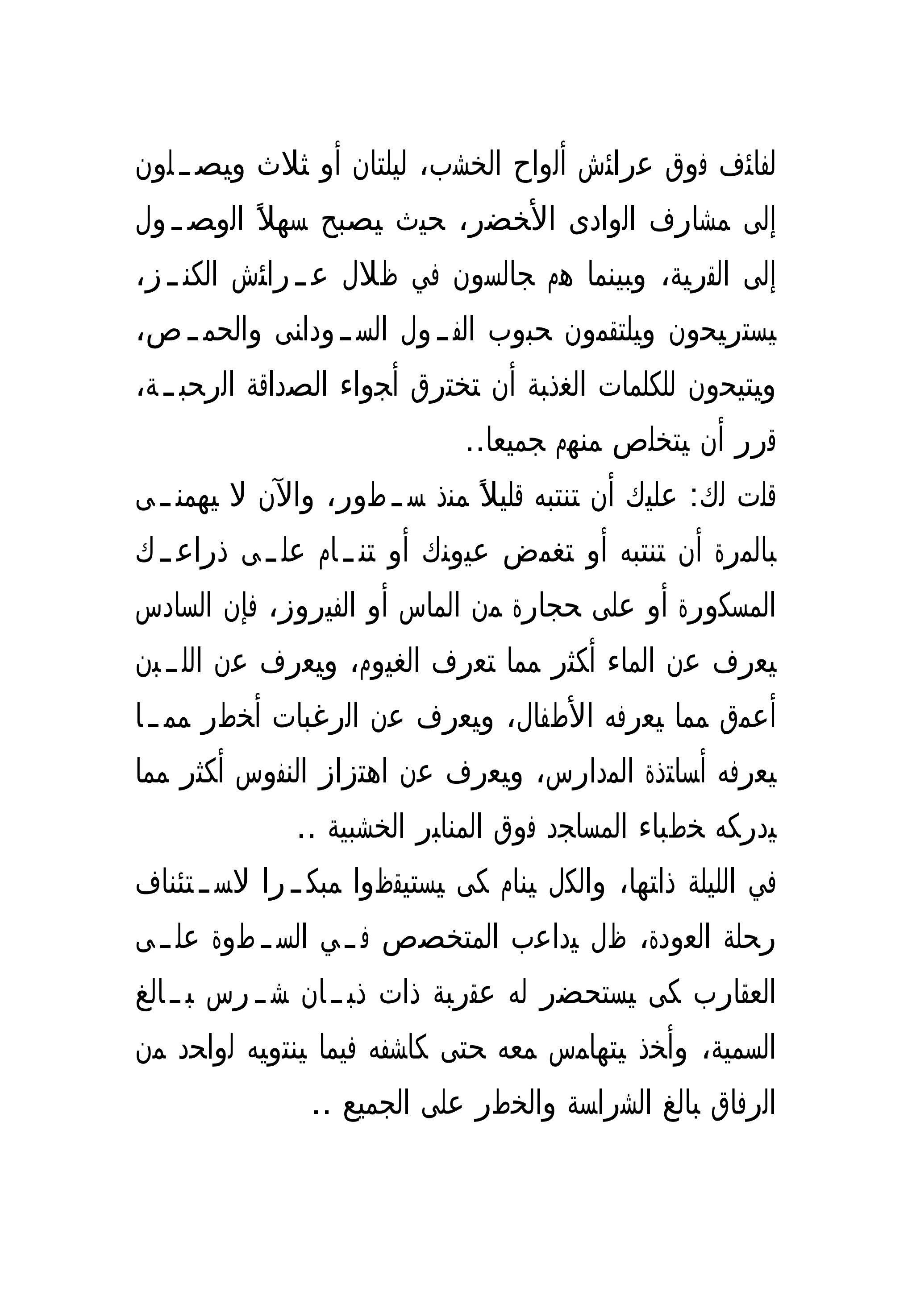
لقد أوقفت الضفدع الأسود ذو العيـون الجاحظـة الجـواد المتمايل في خيلاء وكبريـاء .. ولا تسـتبعد أن يضـطرب فيسقط فارسه المعتز بنفسه على الأرض.

حينئذ هبطت قدرات السادس في التواصل السريع مع رجاله، في التعليقات والملاحظات وابتسامات التشجيع، هل سيتركونه



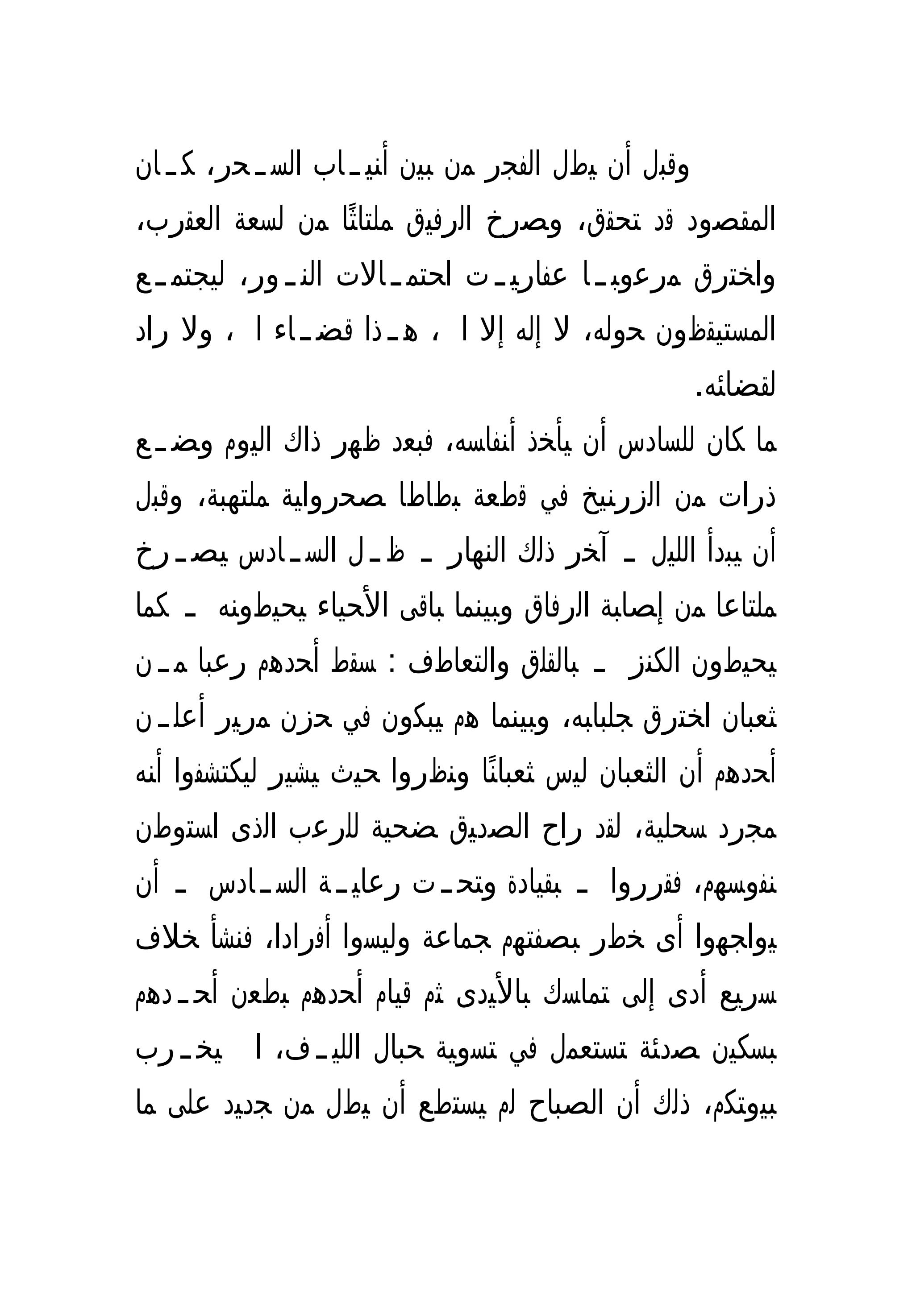
بعد أن ..، هل ستعود المسافات التى كانـت تفصـلهم إلـى وضعها الطبيعى؟؟ هل يمكن أن يكون كما يريد بينما عيونهم ـ في قريته ـ سوف تظل ممعنة فيه؟؟ وعلى المخ الآن أن يتحرك داخل جمجمته التى تتكون جزئيات صـلابتها مـن جوته وأينشتين والبارودى والعقاد وبديعة مصـابنى وطـه حسين وتحية كاريوكا وأحمد شوقى وصلاح أبو سيف وجان بول سارتر وأحمد عرابى وبنت الشاطئ وصباح وإحسـان عبد القدوس، ما الذى يملكه كل هؤلاء؟ أبو زيد الهلالى الذى قاد جيشًا من المصريين ليهزم الزناتى خليفة خدمة للإسـلام مع أن بنت الزناتى كانت هى الهدف الأعظم، هل يعرفـون شيئًا عن رسالة الغفران لأبو العلاء المعرى؟ إنهـم ـ كـل هؤلاء الذين يسحبون الكنز فوق الرمال أصـدقاء الآن، الآن فقط ، .. وجهنم بالحتم قادمة ، أعوذ با ، إنها أفكار شريرة، لكن الأخطر من كل ذلك أن يحمى نفسه، نعم: يحمى نفسـه، حتى يمكنه أن يتشمم الحياة من جديد.

السهل الأخضر ـ عليك أن تنتبه قليلاً ـ هناك فـي أسـفل الأفق، والمساحة الرملية الصفراء سـوف تسـتهلك معظـم الجهد، وهذه هى الليلة الثانية منذ تجهيز الكنز وتربيطه فـي


لفائف فوق عرائش ألواح الخشب، ليلتان أو ثلاث ويصلون إلى مشارف الوادى الأخضر، حيث يصبح سهلاً الوصول إلى القرية، وبينما هم جالسون في ظلال عرائش الكنز، يستريحون ويلتقمون حبوب الفول السودانى والحمص، ويتيحون للكلمات العذبة أن تخترق أجواء الصداقة الرحبة، قرر أن يتخلص منهم جميعا..

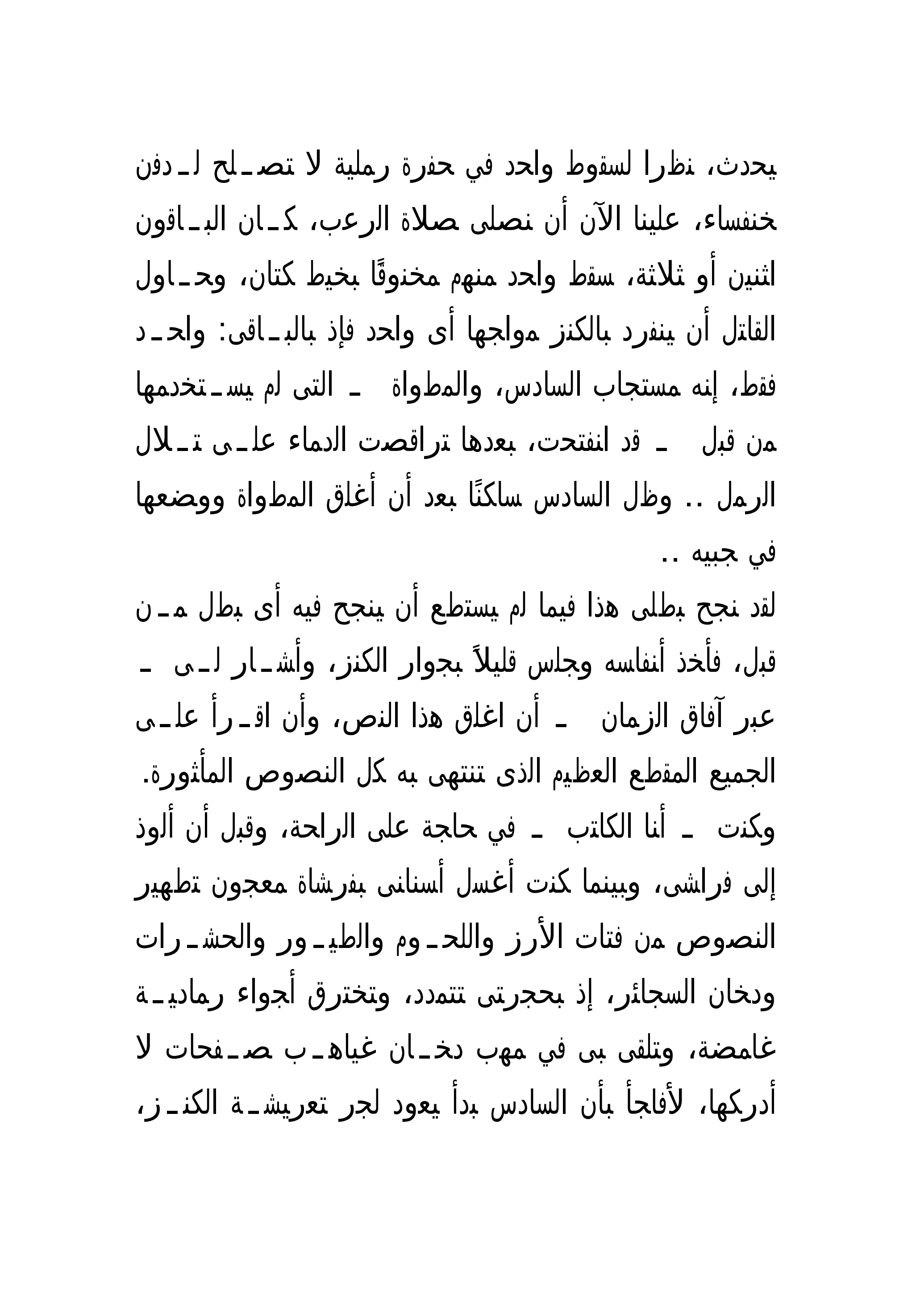
قلت لك: عليك أن تنتبه قليلاً منذ سطور، والآن لا يهمنى بالمرة أن تنتبه أو تغمض عيونك أو تنام على ذراعك المسكورة أو على حجارة من الماس أو الفيروز، فإن السادس يعرف عن الماء أكثر مما تعرف الغيوم، ويعرف عن اللبن أعمق مما يعرفه الأطفال، ويعرف عن الرغبات أخطر مما يعرفه أساتذة المدارس، ويعرف عن اهتزاز النفوس أكثر مما يدركه خطباء المساجد فوق المنابر الخشبية ..

في الليلة ذاتها، والكل ينام كى يستيقظوا مبكرا لاستئناف رحلة العودة، ظل يداعب المتخصص في السطوة على العقارب كى يستحضر له عقربة ذات ذبان شرس بالغ السمية، وأخذ يتهامس معه حتى كاشفه فيما ينتويه لواحد من الرفاق بالغ الشراسة والخطر على الجميع ..



وقبل أن يطل الفجر من بين أنيـاب السـحر، كـان المقصود قد تحقق، وصرخ الرفيق ملتاثًا من لسعة العقرب، واخترق مرعوبـا عفاريـت احتمـالات النـور، ليجتمـع المستيقظون حوله، لا إله إلا ا ، هـذا قضـاء ا ، ولا راد لقضائه.

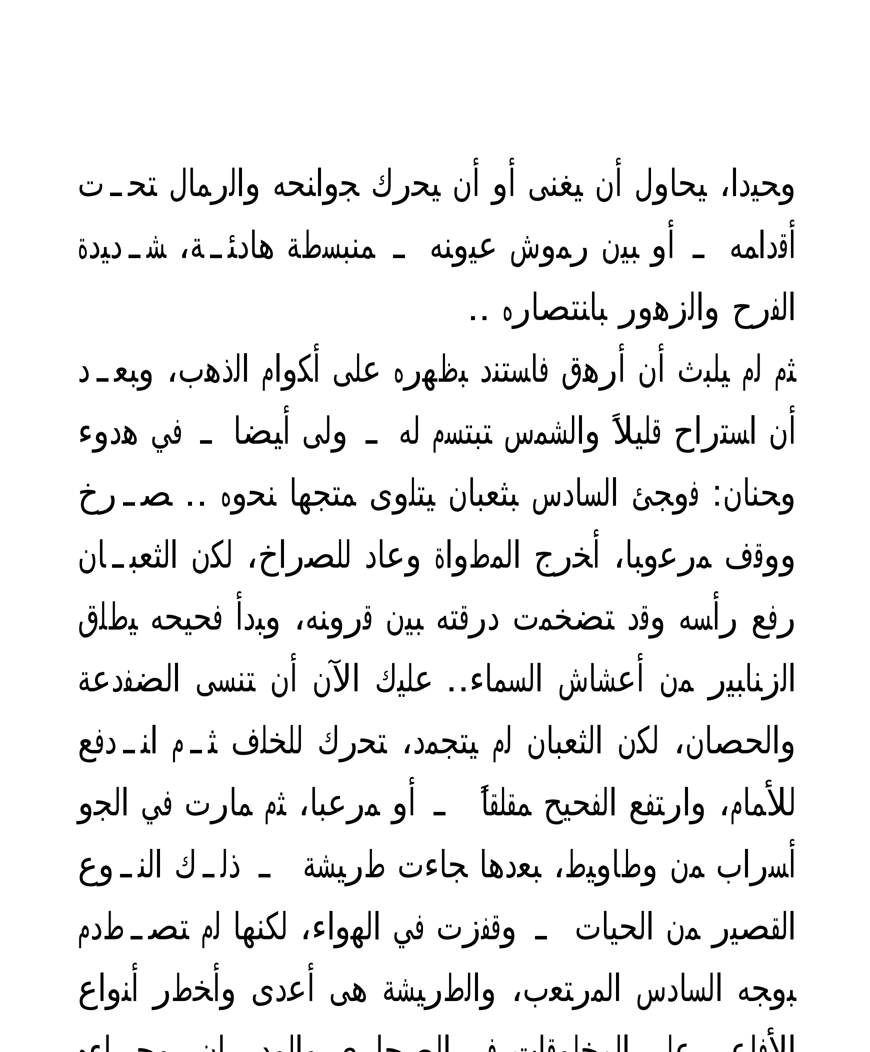
ما كان للسادس أن يأخذ أنفاسه، فبعد ظهر ذاك اليوم وضـع ذرات من الزرنيخ في قطعة بطاطا صحراوية ملتهبة، وقبل أن يبدأ الليل ـ آخر ذلك النهار ـ ظـل السـادس يصـرخ ملتاعا من إصابة الرفاق وبينما باقى الأحياء يحيطونه ـ كما يحيطون الكنز ـ بالقلق والتعاطف : سقط أحدهم رعبا مـن ثعبان اخترق جلبابه، وبينما هم يبكون في حزن مرير أعلـن أحدهم أن الثعبان ليس ثعبانًا ونظروا حيث يشير ليكتشفوا أنه مجرد سحلية، لقد راح الصديق ضحية للرعب الذى استوطن نفوسهم، فقرروا ـ بقيادة وتحـت رعايـة السـادس ـ أن يواجهوا أى خطر بصفتهم جماعة وليسوا أفرادا، فنشأ خلاف سريع أدى إلى تماسك بالأيدى ثم قيام أحدهم بطعن أحـدهم بسكين صدئة تستعمل في تسوية حبال الليـف، ا يخـرب بيوتكم، ذلك أن الصباح لم يستطع أن يطل من جديد على ما



يحدث، نظرا لسقوط واحد في حفرة رملية لا تصلح لدفن خنفساء، علينا الآن أن نصلى صلاة الرعب، كان الباقون اثنين أو ثلاثة، سقط واحد منهم مخنوقًا بخيط كتان، وحاول القاتل أن ينفرد بالكنز مواجها أى واحد فإذ بالباقى: واحد فقط، إنه مستجاب السادس، والمطواة – التى لم يستخدمها من قبل – قد انفتحت، بعدها تراقصت الدماء على تلال الرمل .. وظل السادس ساكنًا بعد أن أغلق المطواة ووضعها في جيبه ..

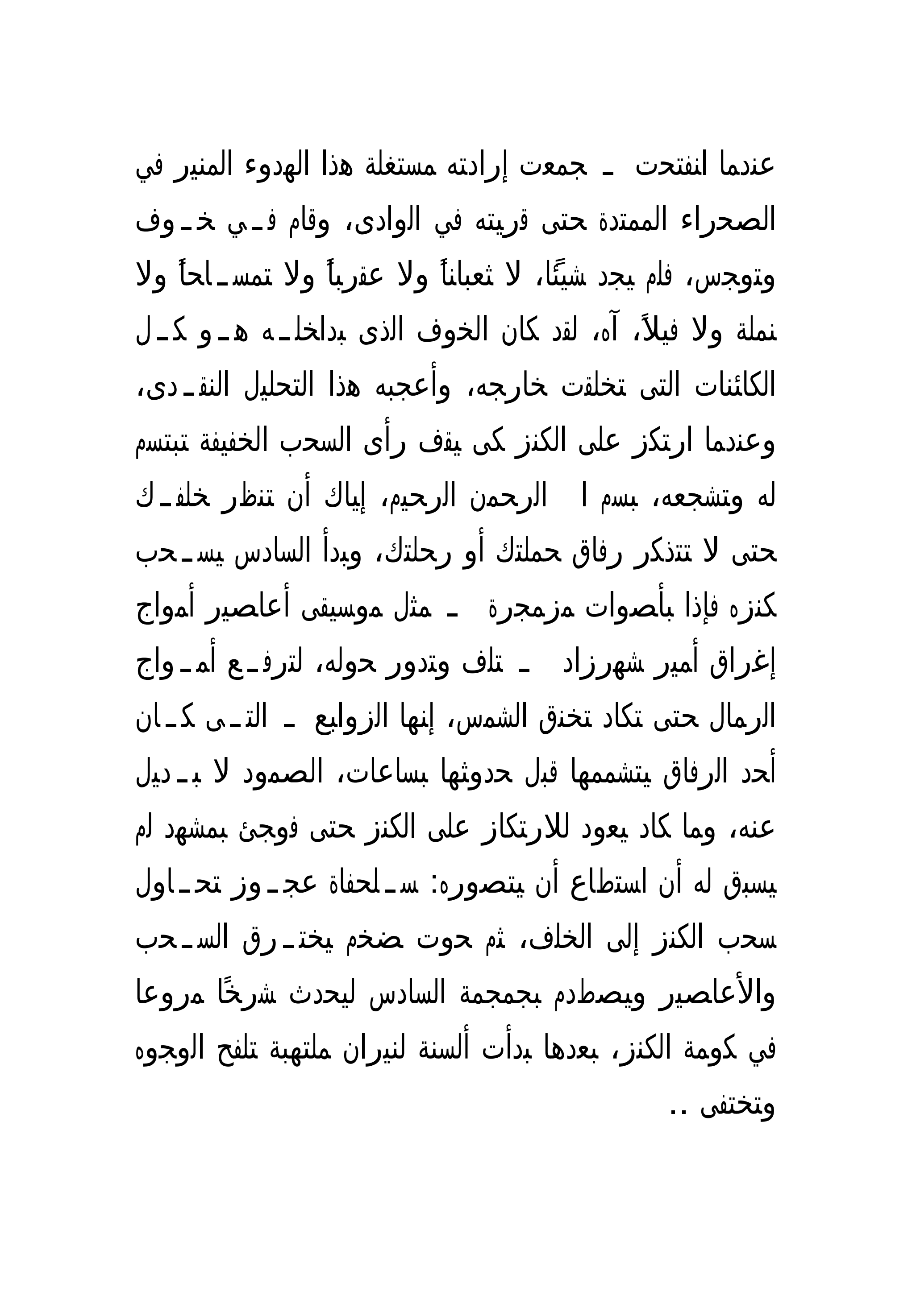
لقد نجح بطلى هذا فيما لم يستطع أن ينجح فيه أى بطل من قبل، فأخذ أنفاسه وجلس قليلاً بجوار الكنز، وأشار لى – عبر آفاق الزمان – أن اغلق هذا النص، وأن اقرأ على الجميع المقطع العظيم الذى تنتهى به كل النصوص المأثورة.

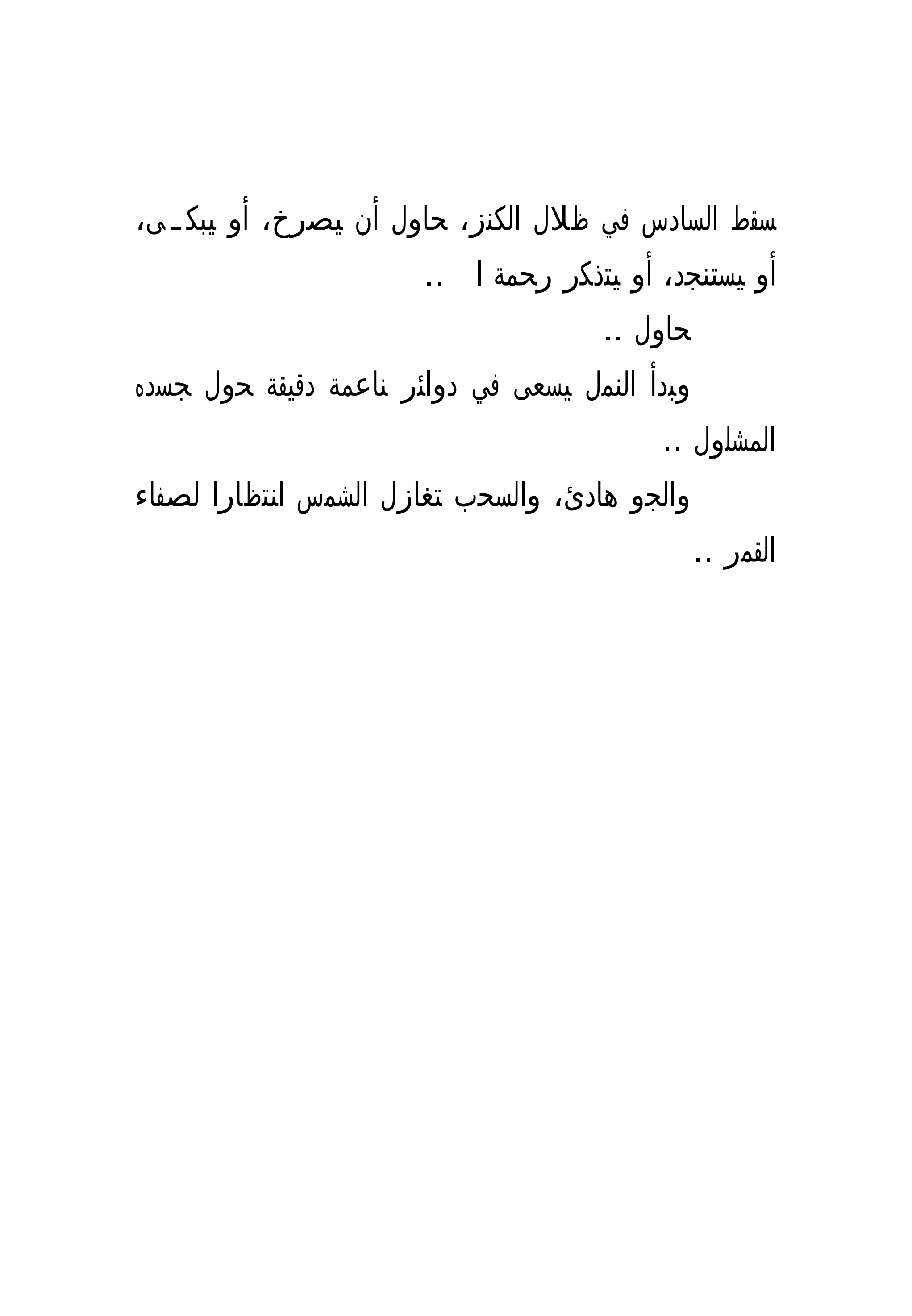
وكنت – أنا الكاتب – في حاجة على الراحة، وقبل أن ألوذ إلى فراشى، وبينما كنت أغسل أسنانى بفرشاة معجون تطهير النصوص من فتات الأرز واللحوم والطيور والحشرات ودخان السجائر، إذ بحجرتى تتمدد، وتخترق أجواء رمادية غامضة، وتلقى بى في مهب دخان غياهب صفحات لا أدركها، لأفاجأ بأن السادس بدأ يعود لجر تعريشة الكنز،



وحيدا، يحاول أن يغنى أو أن يحرك جوانحه والرمال تحت أقدامه - أو بين رموش عيونه - منبسطة هادئة، شديدة الفرح والزهور بانتصاره ..

ثم لم يلبث أن أرهق فاستند بظهره على أكوام الذهب، وبعد أن استراح قليلاً والشمس تبتسم له - ولى أيضا - في هدوء وحنان: فوجئ السادس بثعبان يتلوى متجها نحوه .. صرخ ووقف مرعوبا، أخرج المطواة وعاد للصراخ، لكن الثعبان رفع رأسه وقد تضخمت درقته بين قرونه، وبدأ فحيحه يطلق الزنابير من أعشاش السماء.. عليك الآن أن تنسى الضفدعة والحصان، لكن الثعبان لم يتجمد، تحرك للخلف ثم اندفع للأمام، وارتفع الفحيح مقلقاً - أو مرعبا، ثم مارت في الجو أسراب من وطاويط، بعدها جاءت طريشة - ذلك النوع القصير من الحيات - وقفزت في الهواء، لكنها لم تصطدم بوجه السادس المرتعب، والطريشة هى أعدى وأخطر أنواع الأفاعى على المخلوقات في الصحارى والوديان، وجاءه صوت مزعج: انتبه: تمساح، فازداد ارتعابه دون أن يفصل التمساح بعيدا عن الصحراء، فإذا به يجرى يمينًا ويسارا، ثم يعود إلى كومة الكنز، ليسقط مرهقًا بجواره، إلا أن عيونه -


عندما انفتحت ـ جمعت إرادته مستغلة هذا الهدوء المنير في الصحراء الممتدة حتى قريته في الوادى، وقام فـي خـوف وتوجس، فلم يجد شيئًا، لا ثعباناً ولا عقرباً ولا تمسـاحاً ولا نملة ولا فيلاً، آه، لقد كان الخوف الذى بداخلـه هـو كـل الكائنات التى تخلقت خارجه، وأعجبه هذا التحليل النقـدى، وعندما ارتكز على الكنز كى يقف رأى السحب الخفيفة تبتسم له وتشجعه، بسم ا الرحمن الرحيم، إياك أن تنظر خلفـك حتى لا تتذكر رفاق حملتك أو رحلتك، وبدأ السادس يسـحب كنزه فإذا بأصوات مزمجرة ـ مثل موسيقى أعاصير أمواج إغراق أمير شهرزاد ـ تلف وتدور حوله، لترفـع أمـواج الرمال حتى تكاد تخنق الشمس، إنها الزوابع ـ التـى كـان أحد الرفاق يتشممها قبل حدوثها بساعات، الصمود لا بـديل عنه، وما كاد يعود للارتكاز على الكنز حتى فوجئ بمشهد لم يسبق له أن استطاع أن يتصوره: سـلحفاة عجـوز تحـاول سحب الكنز إلى الخاف، ثم حوت ضخم يختـرق السـحب والأعاصير ويصطدم بجمجمة السادس ليحدث شرخًا مروعا في كومة الكنز، بعدها بدأت ألسنة لنيران ملتهبة تلفح الوجوه وتختفى ..



سقط السادس في ظلال الكنز، حاول أن يصرخ، أو يبكـي، أو يستنجد، أو يتذكر رحمة ا ..

حاول ..

وبدأ النمل يسعى في دوائر ناعمة دقيقة حول جسده المشلول ..

والجو هادئ، والسحب تغازل الشمس انتظارا لصفاء القمر ..